قصص عن

المسيرة الكبرى

دار النشر باللغات الأجنبية

بكين ١٩٥٩

طبع في جمهورية الصين الشعبية

نسخه للإنترنيت

الصوت الشيوعي

https://sites.google.com/site/communistvoice

communistvoice@yahoo.com

مقدمة

لقد قاسى الصينيون كثيرا من صنوف الجور الفظ تحت الحكم الاقطاعي و الاستعماري و البيروقراطي الرأسمالي. و عاشوا حياة كلها تقتير و حرمان. و لكنهم لم يتوقفوا أبدا عن النضال للحصول على حريتهم. و تحت ظروف غاية في القسوة، طالت مدتها، و خلال النضال ظهرت مواقف بطولية لا حد لها تهز النفس.

و قد طلب كثير من الأصدقاء الأجانب تسجيل هذه الحوادث. فقد شعروا أنه بمعرفتهم الأحداث التي مر بها الصينيون، و التجارب القاسية التي مارسوها، و الصعاب المهولة التي تغلبوا عليها، سيتفهمون بوضوح الخطوات التي مر بها الشعب، حتى أحرز النصر المؤزو الذي توج باعلان جمهورية الصين الشعبية في تشرين الأول ١٩٤٩. إن هذا الكتاب يعتبر جزءا من مجموعة تم طبعها، فيها تسجيل للحوادث كتبه الذين اشتركوا في المعارك. و قد تمت ترجمتها الى عدة لغات أجنبية.

و يتضمن هذا الجزء بعض القصص عن المسيرة الكبرى التي طبقت شهرتها الآفاق[١]، في الفترة ما بين ١٩٣٤ و ١٩٣٦.

و لكي نقرب أحداث هذه القصص الى أذهان القراء، سنقوم بشرح مختصر للمسيرة الكبرى ((٢٥٠٠٠ لي[٢]))

حين احتل المستعمرون اليابانيون الشمال الشرقي للصين في عام ١٩٣١ جابهت الصين وضعا عصيبا، و مع ذلك فان حكم الكومنتانغ كان يتجاهل رغبات الشعب

---

[١] - بعد انهيار الاتحاد السوفياتي العظيم اخذ قسم من الشيوعيين البلاشفة؛ في مختلف انحاء العالم؛ بالتطلع الى التجربة الصينية كبديل للتجربة الروسية، و الى الماوية كمكمل للماركسية اللينينية و معوض عن نواقصها. و لم يفت الامبريالية العالمية ذلك، فبدئت حملة دعائية مسعورة ملؤها الأكاذيب و الافتراءات غرضها الحط من قدر ماو و الماوية و الثورة الصينية من خلال تشويه تاريخهم. و كانت المسيرة الكبرى احدى اهداف هذه الحملة المسعورة. و يأتي نسخ هذا الكتاب و نشره في الإنترنيت كتصدي لهذه الحملة المعادية. – هامش الصوت الشيوعي.

[٢] - لي يساوي أكثر قليلا من ثلث ميل.

في مقاومة العدوان الياباني لانقاذ الوطن، و ينتهج سياسة عدم مقاومة اليابانيين. و بدلا من ذلك، ركز الكومنتانغ هجماته على قواعد الثورة التي يقودها الحزب الشيوعي الصيني.

و في تشرين الأول ١٩٣٣، جمع جيانغ كاي شيك مليون جندي، و شن الحملة الخامسة لحصار القواعد الثورية، و خاصة القاعدة المركزية في مقاطعة كيانغسي، متخذا جوى تشين مركزا للهجوم. و في ذلك الوقت كان تعداد الجيش الأحمر في كل البلاد قد وصل الى ٣٠٠٠٠٠ رجل، و كذلك ازداد عدد القوات المدنية المسلحة. و كان الطعام و المؤن متوفرة بشكل طيب. و كان تنفيذ قانون توزيع الأراضي في القواعد الثورية، و تطور البناء الاقتصادي و تحسن حياة الناس، قد جعلهم – و لا سيما الفلاحين منهم – يتحمسون لمناصرة حرب التحرير.

و في تشرين الثاني من تلك السنة وقعت ((حادثة فوكين)). فقد قاد تساى تينغ كاى، و جيانغ كوانغ ناى الجيش التاسع عشر الذي كان في الأصل تحت إمرة الكومنتانغ و انضما به الى لي تشي شن، و غيره من أعضاء الكومنتانغ، لتشكيل ((الحكومة الشعبية الثورية للجمهورية الصينية)) في فوكين، و وقَّعَ الجميع اتفاقية مع الجيش الأحمر لمعارضة جيانغ كاي شيك، و مقاومة المعتدين اليابانيين. و نتيجة لذلك، أصبحت للجيش الأحمر ظروف مؤاتية في هذه الحملة ضد الحصار، أكثر من المرات الأربع السابقة.

و لكن لسوء الحظ، كان الحزب الشيوعي تحت سيطرة الخط ((اليساري)) الثالث. و كان ((اليساريون)) الانتهازيون الذين يسيطرون على الحزب، بعد دخولهم القاعدة المركزية للثورة في بداية ١٩٣٣، قد تجاوزوا ماو تسي تونغ و غيره، و تولوا قيادة القواعد و قيادة الجيش الأحمر. و رفضوا التعاون مع الجيش التاسع عشر للطريق، الذي وجد نفسه بلا سند فكانت النتيجة أن ابادته قوات جيانغ كاي شيك. و الأخطر من ذلك أنهم أهملوا الاستراتيجية الصحيحة لماو تسي تونغ. بل و خاضوا معارك نظامية موضعية ضد جيوش الكومنتانغ المجهزة بأحدث

الأسلحة، و في النهاية أتبعوا ما يسمى بالدفاع في جميع الجبهات، و بعثروا القوات هنا و هناك. و مع ذلك فان الجيش الأحمر بعد عام من النضال المرير كسب بعض النجاحات العسكرية الجزئية، و لكنه لم يستطع أن يخرق حصار العدو. بل على العكس، كانت القواعد في تناقض، و الجيش الأحمر أخذ يزداد ارهاقا.

و في مثل هذه الظروف، و لكي يحافظ الجيش الأحمر على كيانه قرر أنه ليس هنا بد من اختراق صفوف العدو، و القيام بالمسيرة الكبرى. و في تموز ١٩٣٤، تكونت فرقة المقدمة لمقاومة اليابانيين من جزء من الجيش الأحمر بقيادة فانغ تشه مين و سو يي و هسون خواي تشو، و بدأوا السير من كيانغسي في اتجاه أنهوي الجنوبية و لكنهم أضطروا للتقهقر في كانون الثاني ١٩٣٥، نتيجة لهجوم قوات العدو الكثيرة العدد و محاصرتها لهم. و لم يمض وقت طويل على بدء فرقة المقدمة حتى كان الجيش السادس بقيادة جين بي شيه، و وانغ تشن، و هسياوكه قد سار من قاعدة هونان – كيانغسي، و وصل كويتشو الشمالية الشرقية، و شكل مع السلاح الثاني تحت قيادة خو لونغ، و كوان هسيانغ يينغ جيش الجبهة الثاني، و أسسوا قاعدة هونان – هوبه – سيتشوان – كويتشو. و في نفس الوقت كان الجيش الخامس و العشرون بقيادة تشنغ تسه خوا، و تشنغ واى سان، و وو خوان هسين، و هسو خاي تونغ، قد وصل الى شنسي على حدود هوبه و هانان و أنهوي. و قد قلب نشاط وحدات المقدمة الثلاث، تنظيمات العدو. و مكن الجيش الأحمر في القاعدة المركزية – جيش الجبهة الأول – من استكمال استعداداته الرئيسية للمسيرة الكبرى.

و في تشرين الأول ١٩٣٤ كانت القوة الرئيسية في جيش الجبهة الأول الذي يبلغ عدده ٨٥٠٠٠ رجل ((١٠٠٠٠٠ بما فيهم موظفو الحكومة)) تحت القيادة المباشرة للجنة المركزية للحزب الشيوعي، قد بدأت المسيرة الكبرى من القاعدة المركزية، تاركة قوة جزئية بقيادة تشن يي و هسيانغ يينغ و تنغ تشيه خواى و تشانغ تينغ تشنغ، في القاعدة للقيام بحرب العصابات لتغطية القوات الرئيسية أثناء اختراقها حصار العدو. و بعد اختراق أربعة خطوط حصار كان يشكلها ٤٠٠٠٠٠ رجل من

قوات العدو، وصل جيش الجبهة الأول عند حدود قاعدة هونان و كوانغسي في تشرين الثاني ١٩٣٤، و اندفع نحو قاعدة هونان – هوبه – سيتشوان – كويتشو، التي كونها جيش الجبهة الثاني. و ذعر جيانغ كاي شيك ذعرا مميتا من التقاء قوتي الجيش الأحمر، و بسرعة جمع قوة تبلغ ستة أمثال الجيش الأحمر، لمهاجمته في هونان الغربية. و أوعز الى أمراء الحرب في كوانغسي بمهاجمة الجيش الأحمر في كوانغسي الشمالية، و محاولة ضرب حصار حول جيش الجبهة الأول و ابادته. و كانت الحالة تبدو خطيرة. و لكن نتيجة مناقشة ماو تسي تونغ الصائبة و تأييد غالبية الرفاق، غير جيش الجبهة الأول اتجاه سيره، و تقدم في اتجاه كويتشو حيث كانت قوات العدو الدفاعية ضعيفة، احتل كويتشو الشرقية بسرعة. و في كانون الثاني ١٩٣٥ عبر نهر وو العائق الطبيعي، و استولى على تسون يي أكبر مدينة في كويتشو الشمالية. و هناك استراح اثنى عشر يوما، و في هذه الفترة قوّى صفوفه بحوالي ٤٠٠٠ رجل من المقاتلين الجدد. و قد دعا الحزب الشيوعي الى اجتماع كبير في المكتب السياسي المركزي – اجتماع تسون يي – الذي كان له أهمية عظيمة في تاريخ الثورة.

ان القادة الذين ارتكبوا أخطاء ((يسارية))، عانى الجيش الأحمر منها نتيجة لاتباعه سياستهم الخاطئة أثناء حملة الحصار الخامس الذي قام به جيانغ كاي شيك؛ ان هؤلاء القادة قد ارتعدوا فرقا. و قد عجزوا أيضا عن القيام بتحركات سياسية ناجحة عند بدء المسيرة الكبرى، و في أثناء المسيرة كان تفكيرهم الوحيد ينحصر في تجنب العدو، الأمر الذي جعل للجيش الأحمر دورا سلبيا، و آذى معنويته. و كذلك شكلوا تنظيمات قيادية كبيرة لخدمة المؤخرة سببت الابطاء في حركات القوات، و سببت محاصرات و تتبعات العدو، و تعرّض الجيش الأحمر للخطر مرات عديدة. و عندما وصلوا تسون يي في كانون الثاني ١٩٣٥ كانت خسائر جيش الجبهة الأول قد بلغت ٦٠% من قوته.

و لم تؤد هذه الحالة الخطيرة إلا الى تنبه أغلب قادة الحزب (ومن بينهم كثيرون من الذين ارتكبوا أخطاء ((يسارية))) الى أخطاء الخط ((اليساري)). و تحت قيادة ماو تسي تونغ شنوا نضالا منظما ضد خط انتهازية ((اليسار))، و هكذا وضع مؤتمر تسون يي نهاية لحكم ((اليسار)) الثالث للحزب، و انتخب ماو تسي تونغ أمينا للأمانة المركزية. و منذ ذلك الوقت بدأت القيادة الصحيحة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماو تسي تونغ.

و بعد مؤتمر تسون يي اتبع جيش الجبهة الأول تكتيكا متحركا، واضعا المبادأة في يديه. و في شباط ١٩٣٥ أباد أربع فرق للأعداء بالقرب من تسون يي، و فاز بأول نصر عظيم منذ بدء المسيرة الكبرى. و بالخدع سبب جيش الجبهة الأول الارتباكات للعدو، و نجح في ارغامه على الفرار. ثم عبر جيش الجبهة الأول نهر الرمال الذهبية ذا التيار السريع، عند حدود سيتشوان و يونان في شهر أيار في تسعة أيام و لياليها.

تخلص الجيش الأحمر من حصار مئات الآلاف من قوات العدو. و كان هذا هو النصر الحاسم الذي كسبه خلال المسيرة الكبرى. و منذ ذلك الوقت اتجه نحو الشمال مخترقا سيتشوان الغربية، عابرا نهر تاتو، متسلقا سلسلة الجبال الثلجية العظيمة، حتى وصل الى ماوكونغ في حزيران ١٩٣٥، و انضم الى قوات جيش الجبهة الرابع الذي يقوده تشانغ كو تاو و هسي هسيانغ تشين في قاعدة سيتشوان – شنسي.

و كان تشانغ كو تاو أحد قادة جيش الجبهة الرابع، قد فقد الثقة في مستقبل الثورة بعد فشل الحملة الخامسة لفك الحصار. و في خلال شهري آذار و نيسان ١٩٣٥ هجر قاعدة سيتشوان – شنس، و رحل الى سيتشوان الغربية عازما على الانسحاب، أو في الواقع الهروب الى جنوب الصين الغربي. و بعد أن تلاقت قوات الجبهة الأولى و الرابعة، قررت اللجنة المركزية للحزب برئاسة ماو تسي تونغ تأسيس قاعدة شنس – كانسو – سيتشوان من جديد، و ذلك لتنمية الحركة الوطنية

ضد اليابانيين. و لكن تشانغ كو تاو عارض هذا القرار، و طالب بأن يعاد تنظيم اللجنة المركزية على ضوء آرائه. و لإقناعِه أمَرَت اللجنة الجيش الأحمر بالتوقف لمدة شهرين في سونجبان في شمال شرقي سيتشوان، و عقدت اجتماعين هامين لمناقشة الطريق الذي يجب على الجيش الأحمر سلوكه. و أخيرا قبل تشانغ كو تاو اسميا الخط الذي رسمته اللجنة المركزية.

و في آب ١٩٣٥، واصل الجيش الأحمر سيره شمالا في قوتين؛ قوة اليمين تحت قيادة اللجنة المركزية للحزب و ماو تسي تونغ، و قوة اليسار تحت قيادة تشانغ كو تاو و تشو ته و ليو بو تشنغ. و مع ذلك فعندما وصلت قوة اليسار الى آبا ((الآن هي ولاية تبتية في سيتشوان ذات الحكم الذاتي)) رفض تشانغ كو تاو مرة ثانية تنفيذ قرارات اللجنة المركزية، و اعتقل تشو ته و ليو بو تشنغ، و أخذ القوات الى الجنوب. كذلك أصدر أمرا سريا الى جيشين من جيش الجبهة الرابع، كانا قد وضعا تحت قيادة فرقة اليمين أن يعودا معه متقهقرين الى تيانتشوان و لوشان ((الآن شمال يا آن في سيتشوان)). ثم اتخذ بعد ذلك موقفا علنيا ضد اللجنة المركزية. و حتى حاول تدبير مؤامرة لتخريبها. و عندئذ قررت اللجنة المركزية أن تواصل وحدها قيادة فرقة اليمين نحو الشمال. و في أيلول استولوا على لاتسكو العائق الطبيعي على حدود سيتشوان و كانسو و عبروا جبل مين و دخلوا جنوب كانسو. و في الشهر التالي وصلوا مدينة ووتشي في شمال شنسي، و انضموا الى قوات الفرقة الخامسة عشرة للجيش ((المؤلفة من رجال الجيش الخامس و العشرين المشار اليه سالفا، و فرق عصابات الجيش الأحمر تحت قيادة ليو تشيه تان، الذي كان في ذلك الوقت يقوم بمناورات في شمال شنسي)). و في تشرين الثاني، صدت قوتا الجيش الأحمر معا قوات العدو المطاردة، و دعمت قاعدة شنسي كانسو، التي تطورت و أصبحت حدود منطقة شنسي – كانسو – نينغسيا المشهورة و مركزها ينآن. و ظلت اللجنة المركزية هناك حتى عشية انتصار حرب التحرير في بداية عام ١٩٤٨ حيث انتقلت من هذه المنطقة الى جوار شيتشيا تشوانغ في هابي.

و في تشرين الثاني ١٩٣٥، بعد أن أتم جيش الجبهة الثاني مهمة تغطية جيش الجبهة الأول في المسيرة الكبرى، متتبعا نفس الطريق الذي سلكه جيش الجبهة الأول. و في حزيران ١٩٣٦ وصل الى كانتسه في غربي سيتشوان، و انضم الى قوات جيش الجبهة الرابع – الذي كان يقيم هناك – تحت قيادة تشانغ كو تاو.

و كان تشانغ كو تاو قد أقام ((مركزا للحزب مزيفا)) و حاول اغراء قادة جيش الجبهة الثاني بالانضمام اليه في معارضة اللجنة المركزية للحزب، و مناصرة سياسة الهروب و أعماله الانشقاقية المعادية للحزب. و على أي حال فقد قوبلت هذه السياسة بمعارضة صارمة من قبل جين بي شيه و خو لونغ و كوان هسيانغ يينغ قادة جيش الجبهة الثاني. و انضم اليهم تشو ته و ليو بو تشنغ اللذين كانا معتقلين و ناهضوا جميعا بقوة سياسة الهرب التي يدعو اليها تشانغ كو تاو. و نتيجة لهذا النضال، و نتيجة لثبات لجنة الحزب المركزية في سياستها من أجل الاتحاد و الانتصار على اولئك الذين ارتكبوا أخطاء، مع فشل تلك المحاولة لاقامة قاعدة في غربي سيتشوان، أضطر تشانغ كو تاو الى حل مركز الحزب المزيف، و قاد جيش الجبهة الثاني و الرابع في تموز الى الشمال. و في تشرين الأول وصل الى خوي نينغ بكانسو، و انضم الى جيش الجبهة الأول. و بعد التقاء القوات الثلاث للجيش الأحمر – جيش الجبهة الأول و الثاني و الرابع – كللت المسيرة الكبرى التي استمرت عامين[٣] بالنصر المظفر.

و المسيرة الكبرى هي ملحمة عظيمة ليس لها مثيل[٤] في تاريخ الصين. و أطول مسافة قطعها الجيش الأحمر هي ٢٥٠٠٠ لي، و هي على النحو التالي؛ فوكين، كيانغسي، كوانغتونغ هونان، كوانغسي، كويتشو، يونان، سيكانغ، سيتشوان، كانسو،

---

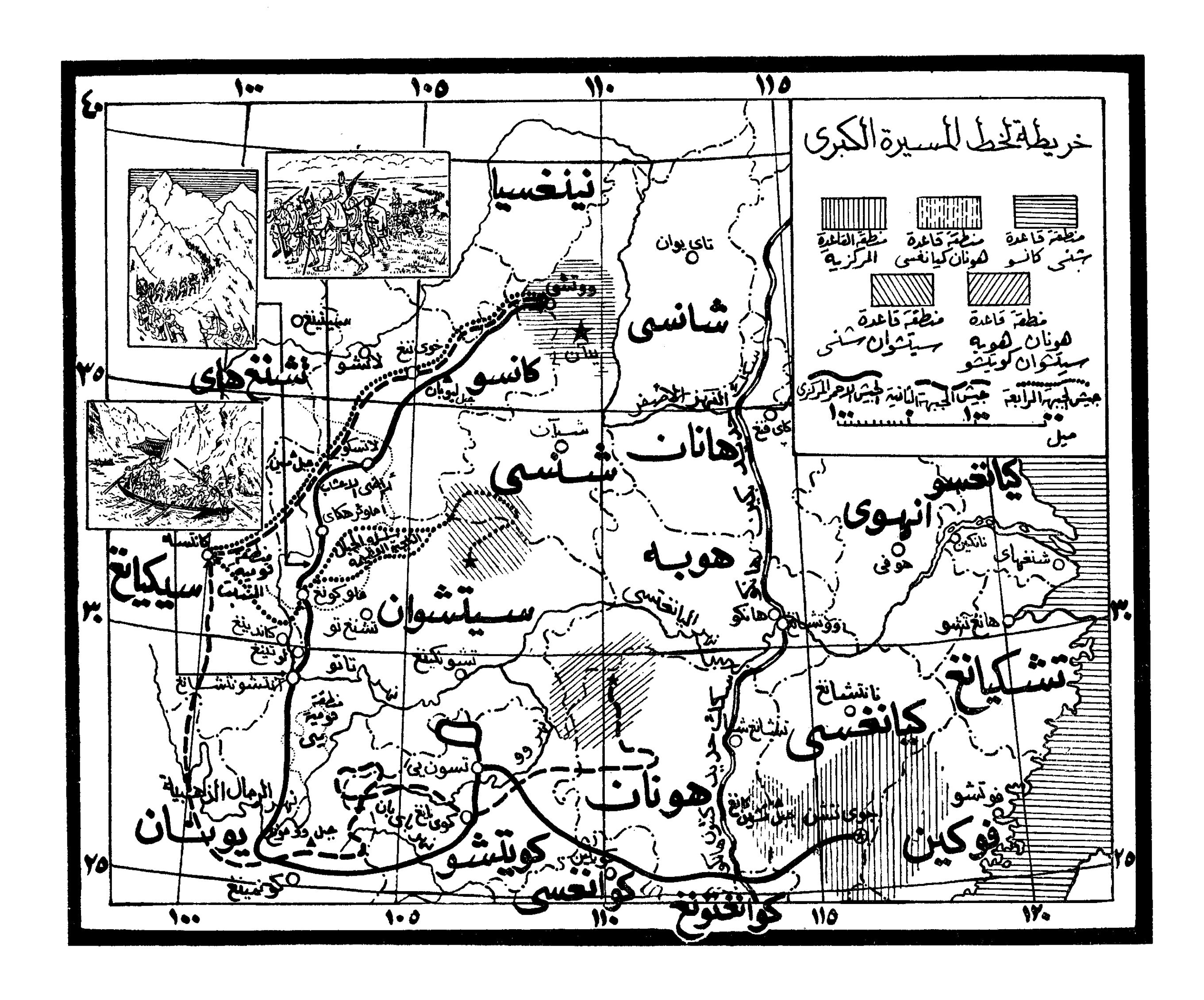
[٣] - يُعتبر بوجه عام أن المسيرة الكبرى استمرت عاما كاملا من تشرين الأول ١٩٣٤ الى تشرين الأول ١٩٣٥، بما في ذلك الوقت الذي استغرقه جيش الجبهة الأحمر الأول المكون من العمال و الفلاحين الصينيين في قطع المسافة من كيانغسي الى شمال شنسي. و الحقيقة أن الفترة التي استغرقتها القوات الثلاث الرئيسية للجيش الأحمر في ذهابها الى الشمال هي عامان.

[٤] - هنا يكمن بيت القصيد في الحملة الاعلامية المعادية للإمبريالية التي اشرنا اليها في الهامش رقم (١): الحط من قدر هذه الملحمة العظيمة التي ليس لها مثيل و إظهارها كأنها لا شيء او مجرد شيء تافه او عابر او عادي.

شنسي. و هي في مجموعها احدى عشرة مقاطعة. و قد بذل جيانغ كاي شيك أقصَ جهوده لتجنيد جيشه، و وحداته الجوية و توحيدها مع قوات أمراء الحرب و الاقطاعيين في المقاطعات المختلفة، و لاقامة المراكز الدفاعية في المواقع الطبيعية للوقوف في وجه تقدم الجيش الأحمر، دون أن يقلل من هجماته. و لكي يتفادى الجيش الأحمر عدوا يفوقه في العدد و العتاد، أضطر أن يتقدم في مناطق مقفرة متسلقا الجبال العالية، عابرا الأنهار المائجة فضلا عن المخاضات و الممرات الخطرة، و خاصة في غرب سيتشوان حيث ترتفع الجبال الثلجية الى ٥٠٠٠ متر فوق سطح البحر، و تنتشر فيها المستنقعات القاتلة. و كانت هذه المناطق معروفة بجدبها و فقرها المدقع و قلة سكانها المبعثرين، و قلة الأغذية. و لأسباب تاريخية كانت شعوب الأقليات التي تسكن تلك المنطقة تحمل البغض و الكراهية للهان ((هم الأكثرية من الشعب الصيني)). و بالاضافة الى ذلك كله، كانت هناك صعوبات جاءت من الثورة نفسها أخطاء الخط ((اليساري)) الثالث أثناء المرحلة الأولى في المسيرة الكبرى، و أخيرا سياسة الهروب التي أتبعها تشانغ كو تاو و أعماله الانشقاقية المعادية للحزب.

و لكن كل هذه الصعاب و المخاطر لم تمنع الجيش الأحمر من تحقيق النصر في المسيرة الكبرى. و كان ذلك أولا و بالدرجة الأولى، لأن الجيش الأحمر يقوده حزب ماركسي – لينيني .. الحزب الشيوعي. و قد تمرس الحزب منذ تكوينه عام ١٩٢١ بفترة نضال ثورية طويلة علمته كيف يجمع بين نظريات الماركسية اللينينية و التطبيق الثوري في الصين، فاكتسب خبرات كثيرة و خاصة في مجال الحرب الثورية ودرَّبَ كثيرا من الشخصيات القيادية. و بعد ((مؤتمر تسون يي)) تأسست اللجنة المركزية للحزب بقيادة ماو تسي تونغ، و اتبعت خطا صحيحا. و لم تكن ناجحة في الكفاح ضد الأعداء باختلاف أنواعهم فحسب، و لكنها كانت صائبة أيضا في التصرف حيال الصراع داخل الحزب نفسه و التغلب على الفشل و الأخطاء التي ظهرت بين صفوفه. و بدون القيادة الصائبة للحزب كان انتصار المسيرة الكبرى للجيش الأحمر يُعَد ضربا من الأوهام.

المحتويات



خريطة لخط المسيرة الكبرى
منطقة قاعدة شنسى كانسو
منطقة قاعدة هونان كيانغسى
منطقة القاعدة المركزية
منطقة قاعدة هونان هوبه سيتشوان كويتشو
منطقة قاعدة سيتشوان شنسى
جيش الجبهة الرابعة
جيش الجبهة الثانية
الجيش الاحمر المركزى
١٠٠
ميل
نينغسيا
شانسى
كانسو
تشنغهاى
شنسى
هونان
هوبه
انهوى
كيانغسو
سيكيانغ
سيتشوان
تشكيانغ
كيانغسى
هونان
فوكين
كويتشو
يونان
كوانغسى
كوانغتونغ
النهر الاصفر
تاى يوان
هانكو
هوفى
شنغهاى
نانكين
فوتشو
٤٠
٣٥
٣٠
٢٥
١٠٠
١٠٥
١١٠
١١٥
١٢٠

مع الرئيس ماو في المسيرة الكبرى

تشن تشانغ فنغ ((كولونيل))

كان ذلك في احدى أمسيات شهر نيسان ١٩٣٥، و أذكر أننا عندما وصلنا نهر الرمال الذهبية، كانت قواتنا مكونة من الوحدات التاسعة و الأولى و الخامسة و الثالثة للجيش الأحمر و الفرقة العسكرية المكونة من الكادر – و لكنهم تابعون لجيش الجبهة الأول. و كان معنا أيضا أعضاء اللجنة المركزية. و نهر الرمال الذهبية هو أول نهر كبير يواجهنا بعد عبور نهر وو. و في ذلك الوقت كان يضطرم بأمواجه الهائجة التي تشبه رؤوس التنانين مصوبة نحونا، و برزت أمام القادة مشكلة عبور هذا النهر، و نحن لا نملك قاربا. و كان الرئيس ماو بالطبع في مناقشات استغرقت الليل كله.

و كنت أنا حارسه الخاص. و قبيل الفجر عبرنا النهر سوية، و لم نكد نصل الى الشاطىء حتى هرع الى الجنرال ليو بو تشنغ ((رئيس أركان الحرب)) لوضع خطوط المرحلة الثانية من المسيرة الكبرى. و شرعت، أنا في ايجاد مكان يمكن أن يستعمله الرئيس كمكتب مؤقت و كمنزل.

و لم يظهر الأمر باعثا على الأمل، فلم يكن شاطىء النهر غير صخور جرداء فيها بعض الحفر عند الحوافي الصخرية ترشح منها الرطوبة، من الصعب أن نسميها كهوفا لعدم اتساعها. بحثت جاهدا عن لوح من الخشب أو الصفيح أو حتى بعض القش لاستعماله كسرير. و لمّا لم أعثر على أي شيء، أضطررت أن أضع قطعة من القماش المشمع، و فرشت فوقها بطانية، و شعرت بأنني قد دبرت له على الأقل شيئا ينام عليه – و لكنه لم يسترح طوال الليل مع أنه لم يسترح في الأيام القليلة الماضية.

و كانت مهمتي التالية هي اعداد الوثائق و الخرائط و الأوراق، و كنت أقوم بهذا العمل في الغالب مع سكرتيره الرفيق هوانغ عندما كنا في المعسكر، و كنا نهيء سوية نوعا من منضدة أو مكتب. و لكن الآن ليس لدي أي حيلة، و الرفيق هوانغ

مازال هناك على الضفة الأخرى. و لم أستطع أن أفكر ماذا أفعل. حاولت أن أعلق خريطة على جدار الكهف و لكني لم أفلح، فقد كان الحائط رمليا لا يتحمل دق مسمار، و لم يكن هناك مكان لوضع المراجع. و قد أضعت وقتا طويلا و أخذت أتوقع عودة الرئيس ماو من مؤتمره في أية لحظة، لم تكن هناك قطرة من الماء الساخن. كنت أعرف أنه سيحتاج اليه بعد كل ما مر به. و تركت مشكلة الوثائق جانبا، و أسرعت لأرى ماذا يمكن أن أفعله لتجهيز الماء. و عندما عاد الرئيس ماو كان ضوء النهار قد ملأ المكان. و استدعاني و ذهبت اليه، و لمّا وصلت الى الكهف وجدته واقفا هناك مستغرقا في التفكير. و قلت له: ((ها قد عدت؟))

((إيم، هل كل شيء جاهز؟))

((لقد عملت كل ما في ميسوري.)) قلتها و أنا أشير الى ''السرير''. ((و لم تكن هناك ألواح فهيأت ذلك. فهل لك أن تستريح قليلا؟ و سيكون الماء المغلي جاهزا.))

و عدت لأرى ماذا حدث للماء، و لكنه ناداني و سألني: ((هل وجدت لي مكانا أعمل فيه؟))

و قلت بغير تفكير: ((ان الرفيق هوانغ لم يحضر بعد، و لم أجد أي شيء يمكن استعماله كمكتب. لماذا لا تأخذ قسطا من الراحة و قليلا من الماء أولا؟))

و عندئذ تقدم نحوي خطوة كمن لم يسمع و قال في جد يخلو من الغضب: ((ان أهم شيء الآن هو العمل، أمّا الأكل و الشراب و الراحة فهي توافه. ان عشرين أو ثلاثين ألفا من رفاقنا ينتظرون هناك ليعبروا النهر. ان ثلاثين ألف نفس في خطر!)) و لم أعرف ماذا أقول، فوقفت أنظر الى الرئيس ماو. و شعرت بأن قلبي يدق. و اقترب و ربت على كتفي قائلا: ((اذهب، و احضر لي لوحا أو أي شيء يمكن إستعماله كمكتب قبل أن تعمل أي شيء.))

انسحبت و أخذت أعدو في كل مرتفع و منخفض حتى وجدت لوحا صغيرا، لا بد من أنه قد أستعمل كباب لفتحة كهف. و ساعدني الرئيس ماو على اعداده لكي يكون مسطحا و مستويا. ثم نشر عليه الوثائق و الخرائط. و عندئذ تذكرت الماء، فلا بد أن يكون قد غلى الآن. و عندما ذهبت لأحضره ناداني الرئيس ماو مرة أخرى!

((تشن تشانغ فنغ!))

((نعم؟))

((عد ثانية!))

و عدت الى الكهف و أنا أخطو بحرص فوق اللوح.

قال لي: ((سأضطر أن أعاقبك بعض العقاب ألا تعرف؟ أريد أن تقف الى جانبي مستيقظا.)) و مع أن نغمة صوته كانت هادئة، و في عينيه نظرة عطف، إلا انني شعرت بحراجة الموقف. و أدركت أني فشلت في عملي، فوقفت أنظر اليه و أنا في غاية الشقاء. و لكني شعرت بابتسامة متعبة تغمر وجهي، و جلست في مواجهته، و قلت: ((حسنا!))

كانت البرقيات و المستندات التي أمامه تملأ المكتب. و كان تليفون الميدان الذي أعده سلاح الاشارة على اتصال دائم، لذلك كان الرئيس منهمكا في العمل، فلم يخلد دقيقة لنفسه. و أحسست بأن من العسير أن أمسك الدمع بعد أن أدركت أنني قد أضعت وقته في اعداد ذلك المكتب. و لو أنني فهمت عملي لكنت قد انتهيت من هذه المهمة قبل ذلك.

و غلبني النعاس، و كنت معتادا على أي حال أن أغفو و أنا الى جانبه. و فهمت ماذا كان يعني عندما قال لي: ((سأعاقبك)) و طلب مني أن أبقى يقظا الى جانبه، و مع أنه كان يمزح فقط و لكني عندما رأيته كيف يعمل بكل قلبه و روحه دون أن يبدي أي اشارة تنم على رغبته في النوم، بل كان ينظر الي من وقت الى آخر بابتسامة مرحة، شعرت بعدم ارتياح شديد. و ذهبت لأحضر الماء و صببت قليلا منه ليبرد. و مرَّ وقت كاف لأن يتناول المرء فيه وجبتين للطعام قبل أن يتوقف الرئيس ماو عن العمل و يريح جسده قليلا.

و قال: ((انك تعمل معي منذ سنين طويلة، فكيف لا تستطيع حتى الآن أن تفهم ما يجب عمله أولا؟ ان أول شيء هو أن تجد مكانا تعمل فيه، أمّا الأكل و الراحة فهما ثانويان، و يجب أن تفهم أن العمل هو أهم شيء في كل الأحوال.)) ثم توقف دقيقة

و ربت بيده على رأسي قائلا: ((يجب أن تنال قسطا من النوم، فانك لا تقوى على فتح عينيك.))

و بعد أن فكرت كثيرا في نفسي، لم أكن بالطبع راغبا في ذلك، و لكنه ألح عليَّ. فانفجرت باكيا و لم أكن أستطيع أن أمنع نفسي. لم يكن ذلك لشعوري بأن نقدا قد وجه الي، و لكنه كان مزيجا من الشعور بالأسى و الابتهاج، نوعا من الشعور تحسه عندما يحذرك أبواك بشيء من الحزم دون خشونة.

رقدت قريبا من السرير و لكن لم أنم. كان رأسي مليئا بالذكريات ...

كان ذلك منذ خمس سنوات، في آخر شهر آذار في سنة ١٩٣٠ عندما نُقِلت من مركز قيادة الجيش الرابع الى لجنة الجبهة الثورية، الصينية لأكون تحت امرة الرئيس ماو. في ذلك الوقت كنّا نسميه ((القمسار)) و ليس ((الرئيس)) ماو. و كان يملك أبسط الأشياء: غطائين من الصوف المخلوط بالقطن، و غطاء فراش، و سترتين، و بنطلونين من الزي العادي، و صديريا، و مظلة مرقعة، و كوزا من الصاج كان يستعمله كوعاء لأكل الرز، و حقيبة رمادية بسيطة ذات تسعة جيوب. و في أثناء المسيرة كان دائما يحمل تلك الحقيبة بنفسه و كذلك المظلة، و كنت أنا أحمل باقي الأشياء. و عندما كنّا نعسكر في مكان، كنت أهيء سريرا من لوحين من الخشب و أفرش عليهما الأغطية، و كان يستعمل بقية أشيائه كوسادة.

و لم ينفق قط ليلة كاملة في النوم. فبعد أن يتناول طعام العشاء، يخرج خرائطه و أوراقه و أقلامه و يبدأ في العمل على ضوء المصباح و كنت دائما الى جانبه. و في ذلك الوقت كنت صغير السن جدا، و كان مستحيلا عليَّ أن أقاوم النوم. و كثيرا ما كان يوقظني حوالي منتصف الليل قائلا: ((أحضر لنا قليلا من الماء البارد.)) و كان لدينا دلو من الخشب أحضرناه معنا من كيانغسي، كنت أملأه بالماء البارد ليرطب نفسه فيه، اذ لم يكن لدينا حوض. و كان يشعر بعد ذلك بالجوع فأُحضر له في كوزه ((الرز ذا الطبقات الثلاث)) و هو عبارة عن طبقة من الرز ثم أي نوع ميسور من الخضروات. ثم طبقة ثانية من الرز. و كان الرز باقيا من وجبة الظهر، فسخنته له

و كان من عادته أن يغطي ما تبقى من الطعام بورقة ليأكله في الوجبة التالية – و لا يدعني أبدا أرمي ما تبقى من الطعام. و بعد منتصف هذه الليلة استمر في عمله.

و بعد ذلك عندما تألفت حكومة العمال و الفلاحين الديموقراطية في جوي تشين ((كيانغسي))، و أنتُخِبَ هو رئيسا للجمهورية، ظل يعيش بنفس البساطة. و لم يكن لدينا حتى أوعية ملائمة للطعام الى أن دخلنا تشانغ تشو فوكين في شباط ١٩٣٤.

انني من عائلة فقيرة، و لم أحصل قد على أي قسط من التعليم. كنت لا أعرف قراءة أي حرف، عندما اشتركت في الثورة. فكان الرئيس ماو يعلمني الحروف من الاعلانات الكبيرة التي كان الجيش الأحمر يلصقها على أي مكان يمر به، مختطفا من وقته بضع دقائق لتعليمي عند مسيرتنا. ثم علمني كيف أكتب اسمي.

و أفقت من هذه الذكريات على صوت التليفون، و كان الرئيس ماو لا يزال مشغولا في الحديث.

استغرق عبور القوات نهر الرمال الذهبية ثلاثة أيام بلياليها، و خلال تلك الفترة لم يترك الرئيس مكتبه في الليل أو في النهار.

و أثناء المسيرة مررنا بالمناطق التي تسكنها قومية يي، و عبرنا نهر تاتو. و في أيار ١٩٣٥ وصلنا هواينبينغ و كنّا نروم بلوغ شويتستى، و كنّا نعد لذلك يوما بأكمله ابتداء من هواينبينغ.

كانت البداية مبكرة كالعادة. و كان الرئيس ماو مشغولا ببعض الأعمال. و ذهب مع الوحدة الطبية بدلا من هيئة اللجنة المركزية، و صحبته أنا و رئيس فرقة الحرس الخاص. و كان علينا أن نعبر واديا مكشوفا طوله ١٢ لي، عندما أغارت علينا ثلاث طائرات للعدو بقنابلها، و سقطت القنابل قريبة جدا منّا، و هرعنا لحماية الرئيس ماو، و لكنه نهض في الحال و انحنى الرئيس ماو ليرى رئيس الحرس الذي أصيب، كان يرقد في سكون و هو يمسك ببطنه. مسه الرئيس ماو بحنان و التفتَ الى ضابط الوحدة الطبية يسأله في لهفة: ((هل تستطيع أن تفعل شيئا؟)) حاول رئيس فرقتي أن ينهض قليلا و قال: ((لا .. استمر!)). كان يتكلم بصعوبة و وجهه ممتقع اللون، و كان دمه ينزف بغزارة. جلس الرئيس ماو الى جانبه و رفع رأسه و

قال له: ((سوف تكون بخير يا رفيق كو تسانغ باو .. كن هادئا و سنحملك الى شويتستى حيث يرعاك الطبيب.)) حرك رئيس فرقتي رأسه الذي استقر على ذراع الرئيس ماو و قال: ((لن أدعكم تحملوني، لا تكلفوا أنفسكم هذه المشقة، انني أشعر بالدم ينزف من الداخل. فلا تهتموا لأمري، فأنا في غاية الرضى. و لكن هل لكم أن تخبروا والديَّ؟ انهما يعيشان في كيان بكيانغسي. و اني لست آسفا إلا لعدم استطاعتي الذهاب معكم الى شمال شنسي لأرى قاعدتنا هناك.)) ثم توقف و تنفس بصعوبة، و عاد فنظر الي قائلا: ((تشن تشانغ فينغ، اعتن جيدا بالرئيس ماو و بقية القادة.)) ثم وهن صوته، و لم نستطع بعد ذلك أن نتبين ماذا يقول. حاول أن يتكلم مرة ثانية، و كانت شفتاه تتحركان، و فجأة صاح بصوت مرتفع ((النصر للثورة!)) ثم مال رأسه، و أغمض عينيه. صحت أناديه ((يا رئيس الفرقة! يا رئيس الفرقة!)) و لكنه كان قد مات. عندئذ سحب الرئيس ماو ذراعه من رأسه، و نهض واقفا و قال لي: ((أعطني الحاف.)) و ناولته اياه من لفة الفراش، فغطى به الجسد.

و اني لأذكر شيئا آخر، و كنت قد أعددت كل شيء لذهاب الرئيس ماو الى الفراش، و كان ذلك في أيلول عندما كنّا نقترب من لاتسكو، ذهبت لأبحث عنه، فوجدته مشغولا في اجتماع مع لين بياو، و نيه جونغ تشن، و لو ياو لو، و لو جوى تشينغ و كلهم منحنون فوق الخرائط، فانسحبت في هدوء.

و في اليوم التالي استولينا على لاتسكو، و دخلناها. كان جبل ليو بان يربض أمام خط سيرنا، و كنّا قد قررنا أن نصل قرية هاتابو في يوم واحد – و هي مسافة تقرب من مائة لي.

كان صباحا قاتما ملبدا بالغيوم، شديد الرياح، جلب الأمطار في أذياله. و عندما وصلنا جبل ليوبان كنّا قد ابتللنا تماما.

كان جبل ليوبان لا شيء بالنسبة لسلسلة الجبال الثلجية العظيمة التي كنّا قد عبرناها، و لكن المنخفضات و المرتفعات هي التي أطالت المسافة. و عبرنا بمشقة كبيرة ما يقرب من ٦٠ لي. لم يكن هناك شيء يساعدنا على السير، و عندما بدأنا نشارف القمة لم نجد شجرة واحدة، بل لم تكن هناك غير أعشاب جافة.

في ذلك الوقت كنت أتناول دواء للملاريا، و عانيت بعض الشيء من ساقي قبل أن نصل سيتشوان بوقت قصير. ثم أخذ الورم يزول، و لكني كنت لا أزال أشعر بدوار. و عندما بلغنا القمة كنت مصابا بدوار شديد، و لا أقوى على الحراك. لاحظ الرئيس ماو ذلك، و سألني عن السبب، فأخبرته أني أخاف ألا أستطيع العبور، تلويت و أنا أتكلم، فسحبني الرئيس ماو، و ظن أني أصبت بالملاريا مرة أخرى، و طلب من حارس آخر أن يحضر الاسعافات الطبية ليعطيني شيئا لاسعافي. و لم أكن أعاني إلا من ارهاق المسير، قلت للرئيس: ((سر أنت أمّا أنا فسآخذ قسطا من الراحة ثم ألحق بكم.))

فقال الرئيس ماو: ((هذا غير ممكن، ان الهواء ضئيل، و سوف تسقط الأمطار، و ليس هناك أي مكان للراحة، يجب أن تجمع قواك، و تحاول أن تنزل هذا الجبل. ((و استَعَدَ لأن يحملني مع الحارس الآخر، و لكني لم أوافق على ذلك، و حاولت أن أبدء السير، و لكن قوتي خانتني، و لم أستطع أن أتحرك خطوة واحدة، و كنت أرتعش بشدة. فسألني الرئيس ماو ((ما الأمر؟ برد؟)) قلت: ((نعم انني أرتعش بردا، و أشعر بكل شيء ينكمش.)) فقال الرئيس ماو: ((خذ معطفي، و اشرب قليلا من الماء الساخن، و ستكون على ما يرام.)) و بدأ يخلع معطفه، و لكنني شددت ذراعه صائحا: ((لا يا رئيس ماو! لن آخذ معطفك. أنظُر، اني أستطيع السير.)) كنت أعرف أن زيه العادي لن يقيه البرد، و أنه لم ينم أغلب الليل، و لذلك أصررت على ألا آخذ المعطف، و حاولت السير، و لكني كنت فعلا في غاية من الضعف، و خطوت خطوة، ثم سقطت مغشيا. و عندما أفقت وجدت الحارس الثاني أمامي يحمل بعض الماء الساخن و معطف الرئيس ماو يغطيني. نظرت الى الريح و هي تعصف بملابسه الخفيفة، فأحسست بقوة تدب في أطرافي. نظر الي نظرته المعتادة ذات التعبير الأبوي، و سألني: ((هل تشعر بتحسن الآن؟)) فأجبته و أنا أستجمع قوتي قائلا: ((نعم، أحسن!)) فقال: ((هذا محارب أحمر، هيا بنا!))

و عند المساء كنا قد بارحنا الجبل، و قبل أن نصل الى هاتابو دخلنا كوخ أحد الفلاحين. و رقدت على السرير. و في تلك الليلة عدت بفكري الى الجبل، لو لم

يعطني الرئيس ماو معطفه لأصبحت – فوق هذه المرتفعات في عداد الأموات. و أحسست بالدموع تملأ عيني.

القتال لعبور نهر وو كيانغ

ليو يا لو ((سنيور جنرال جَو))

في نهاية عام ١٩٣٤ كان الجيش الجبهة الأول من الجيش الأحمر للعمال و الفلاحين الذي ذهب الى الشمال لمقاتلة اليابانيين، قد وصل الى جنوب شرقي كويتشو. و قد نجح في أن يكسر مناطق الحصار الأربع التي فرضها العدو في طريقه. و كانت التعاليم التي تلقيتها شخصيا من القائد لين بياو، و القمسار السياسي للواء الأول من جيش الجبهة الأول نييه جونغ تشن هي هكذا: ((إن السياسة الاستراتيجية الجارية للجيش هي أن نتقدم أولا نحو شمال كويتشو، ثم نحتل على غرة تسون يي و تونغ تز، و ننظم الجماهير و نأسس قواعد جديدة لمقاومة اليابانيين.))

و تسون يي هي ثاني مدينة كبيرة في كويتشو، و تونغ تز كانت مربض وانغ تشيا ليه، أمر الحرب في تلك المنطقة. و أكبر نهر في كويتشو هو نهر وو كيانغ، الذي يخترق المقاطعة من الجنوبي الغربي الى الشمال الشرقي و يقسمها الى كويتشو الشمالية و كويتشو الجنوبية. و كان بمثابة عائق طبيعي في جنوب تسون يي و تونغ تز، أما ممر لوشان كوان الذي يقع بين تسون يي و تونغ تز فهو استحكام هائل ((حيث يستطيع رجل واحد أن يصد عشرة آلاف من الرجال)). و لكي نأسر هاتين المدينتين، كان من الضروري قبل كل شيء أن نعبر نهر وو كيانغ و نحتل ممر لوشان كوان.

و باحتلال لاو خوان بينغ، كان على فصيلتنا الثانية من اللواء الأول أن تقوم بدور الطليعة. و وكلت اليها عملية عبور نهر وو كيانغ ثم احتلال تسون يي و تونغ تز. و تَبَيَّن القادة و المحاربون أن المدينتين تعتبران مفتاحا لنقطة استراتيجية من الواجب الاستيلاء عليها. و لكي ننفذ الاستراتيجية و الخط السياسي للحزب، فلن يعوقنا قط نهر وو كيانغ ((العائق الطبيعي)) و لا ممر لوشان كوان الهائل، عن

التقدم في طريقنا، و بعد تحصننا بهذا العزم بدأنا على الفور عملية الاستكشاف و التحركات.

- ((يا رفاق! ما المسافة بيننا و بين كويبانغ؟))
- ((مائة و ثمانون لي فقط!))
- ((هل من السهل احتلال كويبانغ؟))
- ((ليس لدى وانغ تشيا ليه قوات كثيرة، و سيستطيع الجيش الأحمر الأستيلاء على كويبانغ حتما. و لن يستطيعوا أن يصمدوا أمامنا.))
- ((حسنا، اذن ستأخذ كويبانغ. ماذا تقولون يا رفاق؟))
- ((مرحى! فلنأخذ كويبانغ، و نضع نهاية لاستغلال وانغ تشيا ليه.)) و هكذا انتشرت أنباء السير نحو كويبانغ انتشارا واسعا.

بدأت فرقة الطليعة التقدم نحو نهر وو كيانغ، و بعد يوم و نصف وصلنا هوتشانغ على بعد ١٢٠ لي جنوب النهر. و استقبلنا أهالي المنطقة استقبالا حارا، كان مكتب الكومنتانغ في المنطقة و لواء الأعداء الذين هلعوا لمقدمنا، قد ولوا الأدبار بعد أن دحرتهم ميمنتنا ((جناح اليمين)). و هي الفصيلة الأولى، في يوتشنغ. و قال لنا أهل المنطقة أن نهر وو كيانغ بجرفيه العموديين اللذين يرتفعان عند ضفتيه، و تياره الهائج ذي الدوامات، كان عائقا طبيعيا منذ الأزل و سيتعذر على القوارب عبوره لأن رجال وانغ تشيا ليه يحرسون ضفته الشمالية.

كان اليوم الأخير من السنة يعتبر مناسبة لاقامة حفل كبير للاحتفال بالانتصارات التي كسبناها و مراجعة الأعمال و المعارك التي خضناها خلال العام. و على أي حال فقد كان الأمر يختلف هذا العام. و حيث أن القوات كانت مشتركة في المسيرة الكبرى، فقد وجب أن يقام حفل العشاء و الترفيه في وحدات أصغر و على نطاق أبسط. و الأكثر من هذا أن العشاء و التسلية لم يكونا البرنامج الأساسي لهذا الحفل: فان انتباه القوات كان منصبا على المعركة المقبلة. و مع ذلك فقد عم القوة كلها جو من المرح، و لخصت للرجال عملية عبور نهر وو كيانغ.

((اعبروا نهر وو كيانغ)) ((احتلوا تسون يي و تونغ تز)) ((أنجزوا العمليات الحربية لفرقة الطليعة)) ((و احتفلوا بالعام الجديد في تسون يي و تونغ تز ...)) هكذا كانت شعارات القتال. و بعد مناقشات فروع الحزب و اجتماع التعبئة العامة، تحفز الجميع و تضاعفت ثقتهم.

سبقت معركة عبور النهر يوم رأس السنة الجديدة. ازدحمت فرقة الطليعة على معبر النهر عند الشاطىء لتقود قوة الاستكشاف. كان عرض النهر حوالي ٢٥٠ مترا و سرعة تياره حوالي ١,٨ مترا في الثانية. و عند النتوء الجنوبي للشاطىء كان الممر الصخري ينحدر الى مسافة ١٠ لي بينما يبلغ انحدار الممر الحجري الوعر عند الشاطىء الشمالي ١٠ لي أخرى. كان علينا أن نمر خلالهما قبل أن ندرك الطريق الموصل الى تسون يي و تونغ تز، و على امتداد الضفتين كان الجرف عموديا و يستطيع الانسان أن يرى مياه النهر الخضراء و التلال الضخرية الحالكة السواد. و على الشاطىء الجنوبي كانت تقوم في وقت من الأوقات بضعة بيوت من القش، أحرقها العدو خوفا من أن نستعملها. وصلت وحداتنا الأمامية الى مسافة تبعد ثلاثة ليات تقريبا من الشاطىء الجنوبي. و لم يلحضنا العدو على الشاطىء الشمالي، و كان يحفر بجنون في أعمال حقلة. و قام كنغ بياو قائد الفرقة الأمامية مستخفيا بالذهاب الى الشاطىء للاستطلاع. و كان الأعداء قد وضعوا حراسا على معبر النهر، و على مسافة خمسمائة متر في اتجاه أعلى النهر كان هناك ممر صغير متصل بالطريق المؤدي الى معبر النهر، و لم يكن على أي من الضفتين شاطىء مهما تكن مساحته، و لذا كان الارساء صعبا. و زادت الأمور تعقيدا، ان العدو وضع حرسا من البوليس الحربي في هذه المنطقة، كما شيد تحصينات دفاعية على بعد مائة متر عن ضفة النهر. و في معبد يبعد بمقدار ٢ لي عن الضفة كان يعسكر احتياطي اللواء، و على منتصف سفح جبل يبعد ٥ لي من الضفة كان هناك الاحتياطي العام، و يبلغ عدده أكثر من لواء.

و عندما اكتشف العدو أن سرية الطليعة لجيشنا قد احتلت معصرة للزيت تبعد بضع مئات من الأمتار عن الضفة الجنوبية، بدأ يطلق النار من الشاطىء المقابل.

و بعد استطلاع من البقعة ذاتها، و تقدير للموقف بعناية اتخذ ضباط فرقة الطليعة و القائد و القمسار السياسي للفرقة الأمامية رأيا. و حيث أن الطريق الى معبر النهر كان نقطة الدفاع الرئيسية للعدو و كان محروسا بقوة أكبر محتمية بتحصينات دفاعية أقوى، و الصخور التي تقع على بعد خمسمائة متر في اتجاه أعلى النهر كان يمكن تسلقها بصعوبة، لذلك فان العدو لم يلتفت اليها كثيرا. أما المواضع الأخرى فكان من المستحيل اجتيازها. و لذا تقرر أن نقوم بهجوم كاذب على الطريق المؤدي الى معبر النهر، و أن نركز هجومنا على الممر الصغير في اتجاه أعلى النهر.

أرسلت معدات بناء الجسر في الحال الى معبر النهر لنثير انتباه العدو، و كما توقعنا تقدم العدو في بناء استحكامات الدفاع، و مضى يطلق النار نحونا. و أسرع جنود الانشاءات في صناعة العوامات المائية من البامبو و اقامة الجسر، و أختير ثمانية عشر من السباحين الممتازين ليسبحوا عبر النهر لابادة حرس العدو على الضفة الأخرى، و ليغطوا عبور قواتنا الأساسية، و كان المحاربون الثمانية عشرة الشجعان في روح عالية و على استعداد لأن ينجزوا عملهم الحربي.

كان هناك رذاذ و ريح ثلجية. و كان اليوم الثاني من كانون الثاني موعدا للعبور المسلح، و كل شيء على استعداد. و في الساعة التاسعة بدأ الهجوم الكاذب على المعبر، و قفز جنود العدو الى مواقعهم في سرعة، و أطلقوا النار في اتجاه الضفة الجنوبية صائحين: ((أسرعوا! ان الشيوعيين يعبرون! تعالوا، أسرعوا!)) و كان اطلاق النار ضاريا. و في نفس الوقت بدأت قوة حملتنا الحقيقية تطلق المدافع الرشاشة، و مدافع هاون في زئير. قفز المحاربون الثمانية عشر الى الماء المثلج عرايا حتى الوسط و كل منهم يحمل بندقية ((موزر)). كانت السباحة صعبة. و تحت غطاء كثيف من النيران استطاعوا على أية حال أن يصلوا الى الشاطىء المقابل في حوالي عشر دقائق دون أن يتعرضوا لأية اصابة، و اختبأوا عند

الصخرة التي يحرسها العدو. و انزعج حراس العدو صائحين: ((انتبهوا! ان الحمر مقبلون!))

قرر القائد أن نبدأ العبور المسلح، و استطاعت نيران العدو ان تقلب العوامة الأولى بينما كانت في منتصف النهر، بالرغم من ذلك فقد عبر ثمانية من الرجال الى الشاطىء، و بدون تسليح و امدادات لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا أي شيء و لذا نودي عليهم ليعودوا. و عند العودة، عندما كانوا يسبحون في اتجاه الضفة الجنوبية، أصاب الاجهاد أحد الرفاق، و لشدة البرد لم يستطع أن يواصل السباحة حتى الشاطىء، و مات ميتة بطل، و لم يكن العبور المسلح الأول ناجحا.

و بالرغم من الفشل لم يتردد الرجال و الضباط، بل على العكس أصبحوا أكثر تصميما على انجاز مهمتهم، و نوقشت الوسيلة تلو الأخرى، و بالرغم من كل الصعاب كان على القوات أن تعبر نهر وو كيانغ مهما كلفنا الأمر. و بعد دراسة للموقف و استعراض للخبرات السابقة، تقرر أن يكون العبور أثناء الليل حتى نتفادى نيران العدو و نقلل من الخسائر. و بدأ جنود الانشاءات في صناعة العوامة المزدوجة من البامبو، و بذل الحث السياسي بين القوات.

عند الغروب تجمع الفوج الأول للواء الرابع الذي كان عليه أن يقوم بالعبور المسلح عند ضفة النهر، و فيما عدا خرير المياه كان كل شيء ساكنا. و كان العدو يطلق نيرانا متقطعة. اختيرت الزوارق المسطحة للعوامات المائية، و نزل خمسة من الرجال، و كان الاتفاق أن يبعثوا باشارات من بطارياتهم عندما يصلون الى الشاطىء الآخر، و تقرر أن يبدأ الهجوم على حرس العدو عندما تعبر النهر فصيلة بأكملها.

اندفعت العوامة الأولى خلسة دون أن يلحظها العدو. و كانت ثمة بضع طلقات عرضية تخرق الصمت، و نزل ماو تشنغ خوا القائد الثالث للسرية و جندي مراسلة و ثلاثة من جنود الرشاشات مسلحين برشاش و بندقية كاربين، نزلوا جميعا الى العوامة الثانية، و انطلقوا في الظلام. و كان على العوامتين الثالثة و الرابعة أن

تبدءا عندما تصل المجموعة الثانية الى الشاطىء المقابل. و مرت عشرون دقيقة تقريبا بعد أن انطلقت العوامة الأولى دون أن تظهر أي علامة تشير الى وصولهم. و تقرر التوقف عن ارسال العوامتين الثالثة و الرابعة حتى ينجلي الموقف.

بعد ساعة عاد المحاربون الخمسة على العوامة الإولى الى الضفة الجنوبية و قالوا ان التيار كان شديدا، فلم يستطيعوا أن يتبينوا الاتجاه خلال الظلام. و عندما وصلوا الى منتصف النهر، و بالرغم من جهودهم، فقد جرف التيار العوامة لمسافة ٢ لي قبل أن يستطيعوا الرسو على الضفة الجنوبية، ثم عادوا و هم يتلمسون طريقهم في الظلام، و تبعا لتجربتهم هذه لم يكن في استطاعتهم أن يعرفوا هل وصلت العوامة الثانية الى الضفة المقابلة أم أن التيار قد جرفها بعيدا. و مهما كان الأمر فقد نودي لمحاولة أبعد، و لكن بعد أن وصلت العوامة الثالثة الى منتصف النهر لم تستطع أن تتقدم أكثر من ذلك، و أرغِمَت على العودة، و حتى ذلك الوقت لم يعرف أي شيء عن آمر الكتيبة و رفاقه على العوامة الثانية، و مرة أخرى لم تأت محاولة العبور إلا بالفشل.

و لكن محاربي الجيش الأحمر و قادته لم يصبهم اليأس، و أخذوا يناقشون لكي يجدوا وسيلة لحل المشاكل التي بدأت تفرض وجودها. و من ثم فقد تقرر أن تكون عملية العبور أثناء النهار، حيث يسهل تغطيتها و حيث يكون التجديف أقل صعوبة.

بعد يومين من المناوشات لعبور النهر استطاعت قوة العدو أن تُعَزِّز بلواء مستقل، و ازداد عدد خيامهم على التلال الشمالية أيضا. و من خنادقهم كانت مدافع الهاون مفتوحة نحونا، و أخذوا يبنون تحصيناتهم على امتداد النهر.

في الساعة التاسعة من اليوم الثالث، بدأ عبورنا المسلح مرة أخرى، و قامت قوة صغيرة بهجوم كاذب على نفس المعبر، بينما على بعد خمسمائة متر في اتجاه أعلى النهر كانت ثلاث عوامات تحمل اثني عشر جنديا مسلحا بأسلحة خفيفة، يعبرون في اتجاه الشاطىء الآخر تحت غطاء كثيف من النيران، و تحت ضغط نيراننا الحامية لم يستطع العدو أن يجيب باحكام، و لم يُصَب أي واحد على العوامات الثلاث

بضرر. و أصيبت ركيزة أحد القوارب المسطحة ثلاث مرات بنيران العدو. و لكن الرجل ظل يجدّف في عناد و اصرار. و في الوقت الذي ازداد فيه اطلاق النار من الضفتين، كانت العوامات الثلاث تقترب من الشاطىء المقابل. و كانت المجموعة الثانية على وشك الابتداء.

استولى الذعر على العدو، و أخذ يطلق نيرانه بهوس على العوامات، عندما ظهر فجأة بعض الرجال تحت الضخرة التي أقام العدو فوقها مراكز حراسته. و رأى العدو ثلاث عوامات مقبلات، و لكنه لم يكن يحلم أبدا بأن بعض الرجال يكمنون تحت أقدامه. و على غرة من العدو دوت طلقات الرشاشات بالقرب من مراكز حراسته، و تبعها وابل من انفجارات القنابل اليدوية. ارتبك العدو تماما و أصيب بخسائر فادحة، و في سرعة فائقة احتل الرجال المختبؤون تحت الصخرة مراكز حراسة العدو، و غطوا انزال القوة الصغيرة التي كانت على العوامات الثلاث.

تساءل الجميع في حيرة، من هؤلاء؟ و أخذ القادة في التخمن: ((انه قائد السرية ماو و رجاله! و أنا أجزم بذلك! لقد استطاع الخمسة أن يصلوا، آخر الأمر، ((و صاح المحاربون)) الويل للجيش الأبيض. لقد استطاعت طلائعنا أن تعبر النهر!))

و استمرت المعركة، و استمر العبور المسلح. و لكن لنترك هذا الآن، و لنرى كيف أمضى أبطالنا الليل تحت أقدام العدو.

استطاع القائد ماو و رجاله الأربعة أن يعبروا النهر على العوامة بطريقة ما. و بعد أن نزلوا الى الشاطىء المقابل كانوا يتوقعون أن يتبعهم عدد آخر من الرجال، و لكن لم يظهر أحد. و لمّا كانوا على مقربة عشرين مترا فقط من العدو، فلم يجرؤوا على استعمال ضوء واضح، و لذا أشعلوا عود ثقاب كاشارة. و لكن ضوءه لم يتراءى للرفاق على الضفة الجنوبية.

و كان باستطاعتهم أن يسمعوا الأعداء و هم يتكلمون: ((أسرع! لا بد لنا أن ننهي الأمر الليلة على طول الساحل. بالتأكيد سيعبر الحمر النهر غدا! علينا أن نجعلها

أعنف هذه المرة! ان نيران الحمر حامية.)) و عندئذ صاح قائد فصيلة العدو و كان يقوم بجولة استكشافية ((يا قائد الفصيلة الثالثة! هل اُقيمت كل التحصينات حول أرض المعركة؟ دقق النظر فربما يعبرون الليلة.

لقد كانوا خمسة فقط و غير مدعمين بامدادات. و في مثل هذا الموضع لم يكن باستطاعة القائد ماو إلا انتظار الفرصة. و شعر أحد الرجال بالبرد تحت الصخرة و نفذ صبره، فمال على القائد و همس في أذنه: ((أيها القائد: ماذا علينا أن نفعل اذا لم يأتوا؟))

أجاب القائد في حزم: ((لا تقلق، انهم سيأتون حتما. و اذا لم يأتوا الليلة فسيأتون غدا. و ان لم يأتوا بعد ذلك فعلينا فقط أن نظل مختبئين هنا. ان هذا لا يهم كثيرا. و ان لنا سبيلا فلا تقلق!))

و سمعوا جنود العدو يتحدثون: ((ان جنود الجيش الأحمر شجعان حقا! بالأمس صباحا لم يكونوا خائفين من البرد، فعلا. لقد كان الماء شديد البرودة و لكنهم سبحوا غير آبهين و لحسن الحظ لم يستطع الكثيرون منهم العبور، و إلا ساءت الأحوال معنا.)) ((لقد سمعت قائد الفصيلة يقول ان هذه كانت طليعتهم فقط. و لكن عندما تأتي قوتهم الرئيسية، فكيف يمكننا أن نتصدى لهم!))

و أقترح أحد رجالنا على القائد ماو قائلا: ((لنذهب و نقضي عليهم، اننا واثقون من قدرتنا على ذلك!)) و لكن القائد ماو زجره قائلا: ((اننا نستطيع حتما أن نجهز عليهم. و لكن هذا لا يحل أي شيء. و سيؤدي هذا الى فضح سرنا و كشف اهدافنا، و يلحق ضررا بعملياتنا كلها و التصق القائد ماو و رجاله الأربعة بعضهم ببعض ليستطيعوا أن يقضوا الليل. و بالرغم من القشعريرة التي اعترتهم بسبب عصف الريح الباردة فقد ظلوا محافظين على رباطة جأشهم.

و الآن لنعود الى المعركة. استطاع المحاربون الاثنى عشر الذين عبروا النهر أن يَلحَقوا بالقائد ماو. و بعد أن احتلوا موقع حراسة العدو في أعلى الصخرة، استمروا

في الهجوم على المواقع الأمامية لفصيلة العدو على التل. و اُلقيَّ وابل من القنابل اليدوية على العدو و تبعها تقدم و طعنات بالحراب تحت غطاء من نيران الرشاشات الخفيفة. و احتللنا مواقع العدو الذي قضي على نصف فصيلته ما بين قتيل و جريح، أما الباقون فقد لاذوا بالفرار. و بينما كان رجالنا يقاتلون و يتقدمون في ممر صغير على التل المنحدر اذ باحتياطي العدو يصل. فأصبحوا الآن ثلاثة ألوية، و امدادات العدو تقدر بفوج واحد تقريبا اتخذ موقعا في مستوى أعلى و بدأ يصد التقدم البعيد لمحاربينا الاثنى عشر. و لمّا كان طريق سير الماعز هو الممر الوحيد لهذه المنطقة فقد حاول العدو أن يقوم بهجوم مضاد متجها الى أسفل على امتداد ذلك الممر. و لكن النيران الكثيفة من على الشاطىء أغلقت ذلك الممر و هكذا لم يستطع العدو النزول. و كلّما حاولوا النزول كان قائد فصيلتنا المضادة للطائرات يطلق المدافع الثقيلة، فيجعلهم يتدحرجون الى النهر كالأحجار. و في نفس الوقت بدأت ميمنتنا على العوامة الرئيسية و التي كان عليها أن تعزر الهجوم الأمامي، بدأت تجهز لعبور مسلح على عوامات من البامبو.

و عبرت فصيلة. و اُرسِلَ سكرتير اللجنة الفرعية للحزب مع القمسار الخاص لمكتب الأمن السياسي عبر النهر، ليقوما بتدبير العمل السياسي في الجبهة الأمامية. و تبعهما القائد الأول للفوج. و هاجمت الفصيلة العدو و اضطرته الى التقهقر قليلا. و حققت قواتنا تقدما أبعد. و لكن على أية حال فقد كان التل شديد الانحدار، و الممر ضيقا، فلم تستطع القوات أن تنتشر و اُرغِمَت على التوقف في منتصف الطريق على التل. و عاد العدو الى الهجوم. و تحت ضغط نيران العدو عانت طليعتنا أضرارا و اُرغِمَتَ على التقهقر و حاول العدو أن يندفع الى أسفل التل. فقال مسؤولونا السياسيون: ((يا رفاق! يجب علينا ألا نتقهقر. ان النهر خلفنا، و تقهقرنا معناه الموت!))

اُرسِلَت مجموعة أخرى خلف المجموعة الأولى لتعززها. و استطاعتا معا أن توقفا العدو. و لكن لطبيعة الأرض توقف القتال.

و يتوقف على طبيعة الأرض أكبر تحديد ممكن لتطور المعركة. و استمرت القوات المسلحة في العبور على العوامات. و أثناء تأزم القتال، لاحظ القائد الأول للفوج أن على يسارنا قطاعا في الصخرة يمكن محاولة النفاذ منه. فأُرسِلَت مجموعة لمحاولة التسلق. و بعد تجمعات كثيرة اكتشف الجنود جزءا في الصخرة المنحدرة يمكن تسلقه. و بسرعة احتلت مجموعة من الجنود القمة التي تشرف على مقدمة العدو. و لشدة النيران التي أطلقتها تلك المجموعة لم يستطع العدو أن يقاوم، فهجمت قواتنا الرئيسية. و بدأ العدو يترنح. و في هذه المرة عبرت النهر السرية كاملة. و بعد لحظات استطعنا أن نحتل المواقع الرئيسية للعدو. و استولى الذعر على العدو الذي كان يحتل الطريق الى معبر النهر، و خشى أن تسوء عواقبه، عندما سمع صوت النفير و صيحات المعركة و دوي القنابل و انفجار القنابل اليدوية. و اندفعت طليعتنا الى الأمام و أوقفت العدو في كل الجهات.

و هكذا تحطم أمامنا العائق الطبيعي، نهر وو كيانغ. أمّا الاثنان و العشرون رجلا الذين عبروا النهر أول الأمر فقد اُطلِقَ عليهم اسم ((الأبطال الحمر الاثنان و العشرون.))

و هرب العدو المنحدر في اتجاه تشو تشانغ التي كانت تؤدي الى الطريق لتسون يي. و لم تتمهل طليعتنا حتى تُعَزَّز بالتسليح و الامدادات، بل انطلقت على الفور لملاحقة العدو. و هربت ألوية العدو الثلاث في هلع و ذعر. و كان قائد احدى فصائل الأعداء قد وقع مصابا بجروح بالغة فحمله جنودنا و لكنه مات في الطريق.

و في تشو تشانغ التي تبعد أربعين لي عن النهر كانت تقع مراكز قيادة العدو للدفاع عن النهر. و عندما عاد القائد من جانب النهر مسرعا و هرب مع الألوية الثلاث في اتجاه تسون يي، خَلَّفَ وراءه في مركز القيادة مستندات و رسائل و برقيات. و في الساعة الخامسة بعد الظهر احتلت فرقتا الملاحقة للعدو بلدة تشو تشانغ. و قال لنا الأهالي أن جنود الأعداء قد أجمعت آراؤهم على أن: ((الجيش الأحمر لا يهاب الموت. فحتى نهر وو كيانغ استطاعوا أن يعبروه!))

كيف عصفنا بتسون يي

وانغ تشه تشنغ ((ميجور جنرال))

قبيل بزوغ فجر اليوم الثالث من كانون الثاني عام ١٩٣٥ تلقيت الرسالة التليفونية التالية من الرفيق ليو ياو لو القمسار السياسي العسكري للفرقة: ((اللواء الرابع حطم دفاع الكومنتانغ في نهر وو كيانغ و سيطر على العوامة))، ثم أضاف ((خذ اللواء السادس و اعبر النهر في الحال، و سر في اتجاه تسون يي بأسرع ما يمكن و استولي عليها عصفا!))

فرحنا فرحا عظيما عندما سمعنا أن مهمة الاستيلاء على تسون يي – و هي مدينة مهمة في مقاطعة كويتشو – قد أُلقِيَت على عاتقنا. و خرجنا على الفور متلمسين طريقنا في الظلام. و عبرنا نهر وو كيانغ ذا التيار السريع الغدار على ألواح من البامبو، فشعرنا و كأننا ممتطون جيادا بلا سروج، يمكن أن تلقي بنا في أي وقت. و مع أن ألواح البامبو كانت تعبر النهر بسرعة خطيرة، غير أننا تمنينا لو ان تطيرت بنا من فرط لهفتنا على الوصول الى الضفة المقابلة.

و عندما تم عبور الجميع، كان ضوء النهار قد غمر المكان، فاتجهنا توا الى تسون يي. أخرج آمر لوائنا تشو شويه تشيو من الحقيبة التي يحملها على ظهره طوال اليوم، خريطة بمقياس ١: ٥٠٠٠٠ و فردها على رقبة حصانه، و أخذ يدرسها و هو يسير على مهل. و كنت الى جانبه أنظر الى الخريطة كل هنيهة، و أفكر في التكتيك الذي يجب اتخاذه للعصف بتسون يي. كانت عادتنا في سنوات الحرب تلك، أن نعمل و نحن على ظهر الجياد.

و بعد دراسة كل الاحتمالات قررت أن نستعمل الفوج الأول و الثاني كقوة صدام للهجوم على تسون يي من الشرق و الجنوب. أمّا الفوج الثالث فكان عليه أن ينتظر حالة الطوارئ.

و في تلك الليلة أقمنا في مدينة صغيرة اسمها توانشي تبعد عن المدينة بتسعين لي.

و في اليوم التالي ((٤ كانون الثاني)) استيقظنا و الظلام مازال مخيما. و حيانا الحرس بأخبار سارة، و هي أن الرفيق ليو بو تشنغ رئيس أركان الحرب في مركز القيادة قد حضر.

فقلنا و نحن في فرح: ((ان لنا الآن شخصا يرشدنا.)) و بعد أن اغتسلت بسرعة، و اغتسل آمر اللواء ذهب الآمر ليجمع رجاله، و ذهبت أنا لمقابلة رئيس الأركان.

و كان هو الآخر يغتسل عندما دخلت حجرته و عرفت أنه قد سافر طوال الليل من مركز القيادة لكي يصل الينا بسرعة. و لم أستطع أن ألاحظ على وجهه الذي نحف قليلا من كثرة العمل أية علامة من علامات التعب، مع أنه لم تغمض له عين، و كان في الواقع يبدو معافى قويا.

قال: ((أهلا بالقمسار السياسي، هل تعتقد أنكم تستطيعون الاستيلاء على تسون يي؟))

فأجبته: ((ليس هناك أدنى شك. لقد درسنا الحالة جيدا، و ليست هذه أول مرة تقاتل فيها قوات وانغ تشيا ليه. و سوف نستولي على تسون يي.)) ثم سردت عليه بالتفصيل خطتنا للمعركة المقبلة. ففكر قليلا ثم هز رأسه موافقا.

و سألني: ((ان الرجال على ما أظن في غاية التعب؟ لقد قطعوا آلاف الليات عبر أربع أو خمس مقاطعات و اشتركوا في عدة مواقع طوال الثلاثة أشهر الماضية.)) فأجبته قائلا: ((نعم، انهم تعبون فعلا. و لكنهم في الدقيقة التي سمعوا فيها أنهم سيقاتلون قوات الكومنتانغ نسوا تعبهم في الحال و حفزوا ثانية.))

فابتسم رئيس الأركان و قال: ((و ماذا عن الذخيرة؟))

فأجبته: ((لدينا الكثير منها، فكلما خضنا معارك أكثر أصبحت الذخيرة التي نستولي عليها أكثر، و سنحصل على أكثر و أكثر عندما نستولي على تسون يي.))

كان يبدو أنه يفكر في شيء آخر عندما أجابني و هو يهز رأسه ثم قال في صوت مهيب: ((ان الاستيلاء على تسون يي لشيء عظيم الأهمية، و أنتم القوة الأساسية. و قد حاربتم ببسالة منذ البداية. و أتمنى أن تسجلوا انتصارات أعظم في المعارك القادمة. حقا، اننا نحارب جيشا محليا فقط يقوده وانغ تشيا ليه، و لكن تسون يي مدينة كبيرة جدا، و دفاعها قوي تماما. و قواتهم تزيد على ثلاثة آلاف جندي مقابل قواتنا التي تزيد على الألف بقليل. و هكذا كما ترى أن هناك مصاعب في المعركة. فيجب الحذر. فلا تستصغروا العدو. و استعدوا لتحطيم الصخر حتى و لو بدا لكم لينا كالعجين.

كنت أنصت لكل ذلك صامتا. ثم قال و كأنه يزن كلماته واحدة واحدة: ((لا زال أمامنا صعوبات و ينبغي أن لا نحارب بشجاعة فقط، بل و ينبغي أن نستعمل الذخيرة بحرص أيضا، و نقلل ما استطعنا من الخسائر. و هذا يعني أنه ينبغي أن تستعملوا عقولكم و حكمكم الصائب!))

و فكرت في كلمات رئيس الأركان مرات و مرات، و يبدو أنها نفذت الى نقطة الضعف فيَّ. و في صوت الواثق أجبت: ((لا تقلق يا رئيس الأركان، سوف نستولي على تسون يي بأية وسيلة كانت. هل ترغب في أن تتحدث الى الرجال؟))

فقال و هو يلبس نظارته: ((انها لفكرة حسنة. سنذهب اليوم الى تسون يي معا!))

و لكن كيف نسمح لرئيس الأركان بأن يحارب الى جانبنا؟ ان عليه مسئوليات جساما. و الى جانب ذلك فانه لم ينم ليالي لا يعرف الانسان عددها. و قد تأثرت كثيرا فلم أعرف ماذا أقول. و الآن و قد انضم لنا رئيس الاركان، فاننا قد كسبنا قوة اضافية.

عندما طلع النهار كنّا في طريقنا الى حيث يجتمع رجالنا، خيمت غمامة منخفضة في السماء و كأنها كانت من أنفاسهم. و بين الرجال وقف رئيس الأركان و نظر حوله ثم تكلم بصوت مجلجل:

((أيها الرفاق لقد ضربتم للآخرين أروع الأمثال. و كنتم السباقين في المسيرة و الأبطال في القتال. و قد صمدتم لجميع المصاعب و تحملتموها بجلد. و في هذه المرة وضعنا على عاتقكم مهمة الاستيلاء على تسون يي. و أنا واثق من أنكم سوف تحققون نصرا عظيما، و هكذا تجلون الطريق لجيشنا الأحمر ليتجه نحو الشمال و يقاتل اليابانيين المعتدين! ...))

و عندما انتهى من كلامه، ارتفعت غابة من القبضات و انطلقت الحناجر مرددة الهتافات مثل زمجرة قاصفة و كأنها قنابل مئات المدافع انطلقت مرة واحدة فكانت وعيدا بالهلاك لقوات العدو في تسون يي.

و تقدمنا نحو مدينة تسون يي في اتجاهين. و بعد الظهر أخبرتنا كشافتنا أنهم عينوا موقع العدو في قرية تبعد ٣٠ لي تقريبا عن المدينة، و أن أكثر من فوج من قوات العدو يرابط هناك. و عندما سمع تشو آمر اللواء بهذا، أمر في الحال قواتنا بالتقدم بأقصى سرعة و مهاجمة العدو على غرة و تطويق القرية على شكل فكي كماشة. و أعطى رئيس الأركان رجالنا تعاليم مشددة بضرورة شل حركة فوج العدو في القرية. و اذا أفلت أحد من العدو فذلك يجعل حامية المدينة تنتبه، و تخرب العملية كلها.

قمنا بهجومنا على المدينة بعد الساعة الثالثة، و كانت الأمطار غزيرة، و تبللنا حتى نفذ البلل الى أجسامنا، و لكن ذلك لم يزعجنا – فقد اعتدنا ذلك. لا – إن الاعداء هم الذين قاسوا الأمرين من ذلك. فهم أولا قد اعتمدوا كثيرا على نهر وو كيانغ كعائق طبيعي ظانين أننا ربما لا نستطيع عبوره، أما الآن فهم يظنون واهمين أنه لا يمكن حدوث أي شيء في مثل هذا اليوم الموحل ...

و عندما سمعوا أصوات طلقاتنا الغاضبة صحوا فزعين. و لم يكن لديهم أي فكرة في ذلك الوقت، فحملوا أسلحتهم مترددين ليقوموا بأي مقاومة ممكنة، فدخلوا المصيدة كالفئران.

و في وقت قصير تدفق رجالنا الى القرية و قاموا ببعض التحصينات و حاول آمر فوج العدو أن يهرب و معه وحدة صغيرة من قواته الباقية، فقد اندفعوا بلا تدبل، و لكنهم فشلوا في فتح ثغرة في حصارنا المحكم. و قد نفذنا تعاليم رئيس الأركان بحذافيرها: كل قوات العدو قُتِلت أثناء المعركة أو اُسِرَت حية. و لسوء الحظ حاول آمر فوج العدو أن يهرب و كله ثقة، و لكنه قُتِل أثناء محاولته – أسرع مما كنا نود. و كنّا نفضل أن نأخذه أسيرا و نستخرج ما عنده من معلومات عن مواقع العدو في المدينة نفسها.

و هكذا، و هذا ما حصل، شذبنا جذور العدو في تسون يي. أو بالأصح جعلناها لنا. فمن بين الأسرى انتقينا آمر سرية و قائد فصيلة و اثني عشر جنديا من اللذين انحدروا من عائلات فقيرة، و سألناهم بالتفصيل عن دفاع العدو في تسون يي.

بدأت بسؤالهم عن أسمائهم و محل مولدهم و أحوال عائلاتهم. كانوا مرتعبين يلتصق أحدهم بالآخر في تخشب، و في غاية الانتباه، يجيبون على أسئلتي في احترام زائد. لا بد و أن آمر سريتهم كان يحيط نفسه بمثل هذا الجو من العظمة النفسية لكي يرضي غروره لأنهم كانوا يتلجلجون في كلامهم، و لا يجرؤوا أبدا على النظر الي. و لمّا رأيت أنهم مازالوا مرتعبين و متشككين، بدأت أشرح لهم سياستنا حيال أسرى الحرب و أخبرتهم أن الجيش الأحمر هو جيش الفلاحين و العمال، و أن هدفنا هو القضاء على أمراء الحرب و الاقطاعيين حتى يستطيع الفقراء أن يحيوا حياة أفضل. و لمّا تبين لي ضآلة معلوماتهم مضيت في القول موضحا لهم، لماذا لم تكن هناك مساواة بين الفقراء و الأغنياء، و لماذا نريد القضاء على أمراء الحرب و الاقطاعيين و في النهاية قلت لهم: ((الآن فكروا في هذا

الموضوع ثم أخبروني: في سبيل من تطوعتم للخدمة العسكرية؟ و من هو المستفيد؟))

و يبدو أنهم أدركوا صدق كلماتي، لأن بعضهم بدأ يسهم عينيه و البعض الآخر أطرق برأسه في سكون. و قال أحدهم: ((اننا أناس فقراء و قد تطوعنا للخدمة لأننا كنا نموت جوعا.)) و خلع آخران قبعتيهما العسكريتين و كانتا تحملان شعار الكومنتانغ و ألقيا بهما أرضا و بصقا عليهما و صرخا في غضب: ((لقد خُدِعنا! و لن نموت في سبيل أمراء الحرب أو الاقطاعيين!))

و عندما رأيت أنهم بدأوا ينظرون للأشياء على ضوء الحقيقية، أخبرتهم بأننا سوف نقوم بالهجوم على تسون يي في نفس اليوم، و أننا سوف نعطي جوائز سخية لأي شخص يعطينا معلومات مفصلة عن مراكز العدو في المدينة. و هذه التصريحات جعلت آمر السرية يستسلم و ينحني محييا: ((يا سيدي لقد أحسن الجيش الأحمر معاملتنا و نحن نتوسل لاعطائنا فرصة لتقديم خدماتنا!)) ثم استمر يصف كل شيء عن العدو في تسون يي، راسما خريطة لذلك. و كذلك أخبرنا عن القوة الحقيقية للحامية.

((هل أستطيع أن أثق في كلماتك؟)) سألته و أنا أرقب باقي الأسرى بنظرة لها مغزى.

فأجاب آمر السرية في تذلل: ((كل كلمة. اذا كانت هناك أي كلمة غير صحيحة فلك أن تقطع رأسي في الحال!)) أما باقي الأسرى الذين بدوا و كأنهم قد أفاقوا من نومهم و هزوا رؤوسهم مؤيدين صدق ما قال رئيسهم.

و عندما انتهى الحديث أعطينا كل واحد ثلاثة دولارات من الفضة. و كنّا في ذلك الوقت في أشد الحاجة لادخار النقود، و لكنا كنّا دائما نراعي الحق في معاملاتنا لأسرى الحرب. و عندما أمسكوا بالدولارات في أيديهم لم يستطيعوا أن يخفوا امتنانهم و قالوا: ((ان ضباطنا أخبرونا أنكم في غاية الفظاعة، مخلوقات، حمراء

الأنوف، زرقاء العيون، انغمست في شهوة القتل و احراق المنازل. لقد أخافونا بقولهم أننا لو وقعنا بين أيديكم فستفقأون أعيننا و تنتزعون أمعاءنا[٥] و لم نكن لنتصور أبدا أنكم أناس طيبون لقد أنقذتم حياتنا حقا!))

و في تلك اللحظة خطرت لي فكرة، الآن و قد عرفنا كل شيء عن العدو في تسون يي، و لم يفلت أي شخص من القرية، فلماذا لا نتنكر في ملابس قوات الكومنتانغ و نستفيد من الأسرى لخدمة الحامية و نكسب النصر بسرعة! و تحدثت مع آمر اللواء، فوافق، ثم تباحثنا مع رئيس الأركان و حصلنا على موافقته في الحال و قال: ((انها لفكرة حسنة، و هذا هو ما أسميه استخدام العقل حقا.)) ثم نَبَّهنا الى ضرورة اتقان التنكر تماما و إلا سنلقى حتفنا اذا اكتشف العدو فينا شيئا غير اعتيادي.

---

٥ - يحاول أعداء الشيوعية على الدوام تشويه صورة الشيوعيين في أعين الجماهير من خلال إلصاق جميع الصفات السيئة التي يحملونها هم انفسهم؛ أي أعداء الشيوعية؛ بالشيوعيين. لطالما زعق الرجعيون العرب و أقاموا الدنيا و لم يقعدوها عن ''جرائم الشيوعية في العراق'' و كيف إن الشيوعيين العراقيين ''يسحلون الناس بالحبال في الشوارع'' و ''يشنقون الناس على أعمدة الكهرباء في الموصل'' ... الخ، ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة عن جرائم الفاشية البعثية و فظائعها و يعتبرون المقابر الجماعية التي شيدها حزب البعث في العراق ''ضرورة قومية'' لا بد منها!! و لطالما زعق الغرب الرأسمالي عن قيام الشيوعيين الصينيين بعد انتصارهم مباشرة بـ ''اعدام الناس على اعمدة الكهرباء''. ترى أي ''ناس'' ''يسحلهم'' الشيوعيون و ''يقوموا بشنقهم على أعواد الكهرباء''؟ اذا استعمل الشيوعيين العنف فانهم يستعملوه ***كرد*** فعل ضد جرائم أعداء الشعب و ليس ضد الشعب. و خير مثال على ذلك المجرم طه الجزراوي الذي اعلن من على شاشات تلفزيون النظام الفاشي البعثي المقبور في العراق: أن المقاومة الشعبية – مليشيا الحزب الشيوعي العراقي السابق - أتت تريد أن ''تسحله'' إلا انه اختبأ منها فنجا ... . أن من يعرف من هو طه الجزراوي و ما هي جرائمه لن يتردد في الاعتراف بحقانية الشيوعيين العراقيين عندما أرادوا ''سحل'' هذا الوحش الفاشي البعثي الذي اعدم و عذب الألوف من الأبرياء من بنات و أبناء العراق الشرفاء. اذن فأعداء الشيوعية هم البادئون بالعنف دائما فهم من قاموا بمؤامرة انقلاب الموصل و التي قاموا خلالها بارتكاب افظع الجرائم و اشدها بشاعة ضد الشيوعيين العراقيين في الموصل فجاءهم ***رد*** المقاومة الشعبية المجيدة صاعقا ماحقا ... . أمّا في الصين فان من ''شنقهم'' الشيوعيون الصينيون ''على اعمدة الكهرباء'' فهم الجلاوزة و السفاكين من أزلام الطاغية ''الديكتاتور'' جيانغ كاي شيك الذين ساموا الشعب الصيني أمر العذاب و الذين كانوا يقتلون، ***في الشوارع و أمام أنظار المارة*** كل من يشكو مجرد شك أنه من أنصار أو مؤيدي الحزب الشيوعي الصيني ... . أفلا يستحق هؤلاء ''السحل'' و ''الشنق على أعمدة الكهرباء'' ليكونوا عبرة لمن يعتبر؟ – ملاحظة الصوت الشيوعي.

و كان الممثلون الرئيسيون في هذه ((الحكاية)) هم الرفيق تسنج باو تانغ آمر الفوج الأول و رجال السرية الثالثة، و فصيلة الكشافة، و حوالي ثلاثين جنديا من النافخين بالأبواق في اللواء. و كان عليهم أن يرتدوا ملابس العدو و يصحبهم الأسرى الذين تحدثت معهم كمرشدين. أمّا سائر اللواء فكان عليه أن يتبعهم و يشن هجومه الشامل في حالة فشل الخطة.

و في الساعة التاسعة مساء خرجنا تحت وابل من الأمطار. و كان الطريق حالك الظلام و الأرض زلقة جدا، فظللنا نتعثر على طول الطريق و قد غطى الوحل أجسامنا حتى أصبحنا أشبه بتماثيل من الطين. أمّا أحذيتنا المصنوعة من القش فقد التصقت بالطين و لم يكن انتزاعنا لها ثانية حبا للفلوس بل نكره أن نفارقها و لكن ما دام ذلك يعيق تقدمنا فلم نُصِرّ على استردادها، و هكذا اضطررنا لتركها خلفنا – لقد كنّا نعتز جدا بتلك الأحذية، فقد لبسناها و نحن نتسلق الجبال و نعبر الأنهار. أمّا الآن فقد سرنا حفاة، و لم يكن مزاحا ما فعله بنا الحصى و الشوك و الوحل.

و بعد ساعتين من السير الحثيث هدأ المطر، و لم يبق إلا رذاذ طفيف، ثم لمحنا في الظلام نورا، فهمس لنا الأسرى بأننا نقترب من المدينة و أن ذلك النور ينبعث من مصباح في أحد أبراج البوابة. و في الحال أحدثنا بعض الضوضاء و هرولنا في هرج و مرج اتجاه سور المدينة كمن يجري ليحتمي من عدو يقتفي أثره.

و اعتَرَضَنا صوت غاضب من بوابة البرج قائلا: ((من هناك؟ و سمعنا أحدا يهيىء بندقيته.

و أجاب أسرانا في هدوء بلهجتهم المحلية: ((أصدقاء. رجالكم!))

((أي وحدة؟))

و في هذه المرة أجاب آمر السرية كما اتفقنا من قبل. و قال لهم و هو يعوي: ((الفوج المرابط خارج المدينة))، ثم اضاف: ((لقد حاصرتنا عصابات الشيوعيين.

لقد ضاعت منا القرية – و قُتِلَ آمر الفوج. نحن الكتيبة الألى و أنا آمرها – و هذه بقيتنا. ان العصابات في اثرنا. افتح، دعنا ندخل!))

و سأل أحدهم: ((ما اسم آمر فوجك؟))

أجابه قائد الكتيبة بدون أي تردد. و ساد السكون فترة – كان واضحا ان جنود العدو عند برج البوابة لم يكونوا مستعدين لهذا الذي حدث. و كانت أصواتهم تصل الينا و هم يتناقشون. و بالطبع لم يكن لدينا أي نية لنتركهم يدرسون الموضوع جيدا. و لذلك نظمنا ((هجوما)) آخر. صرخنا جميعا بأعلى صوت: ((أسرع، افتح! أسرع، افتح! ان العصابات ستصل في أي دقيقة!))

و زعق أحدهم: ((كفى صراخا!)) و يبدو أنه كان أحد الضباط، و عرفنا من صوته انه ما زال متضايقا لإيقاظه.

و كان علينا ان ((نطيع)) أوامر الضابط، و نكف عن الصراخ. و فجأة أصبحنا في بؤرة الأنوار الكشافة التي كانت على البرج – كانوا يفحصوننا مرة أخرى. و لكن بالطبع لم تكن تلك الأنوار لتكشف عن حقيقتنا، و بقدر ما يستطيع الجنود على برج البوابة ان يروا فنحن بالطبع ((رجالهم)). و لمّا كنا نلبس قبعات الكومنتانغ العسكرية، لذلك قالوا: ((حسنا، انتظروا لحظة و لا تصخبوا. و سنفتح لكم!))

كان من الصعب علينا ان نكتم ضحكاتنا. و في هدوء ثبتنا الحراب و حملنا بنادقنا و انتظرنا في تلهف لكي يفتحوا لنا البوابة و يرحبوا ((برجالهم)). و في الأول سمعناهم يشدون مزلاج بوابة المدينة، و سمعنا صرير البوابة الضخمة العالية و هي تفتح. و في صوت مرتعب سأل احد جنود الأعداء واحدا من كشافينا. ((هل عبرت عصابات الشيوعيين نهر وو كيانغ؟ انهم في منتهى السرعة، أليس كذلك؟))

أجاب كشافينا: ((نعم انهم كذلك! و الآن دخلوا تسون يي! اسمع، انت! نحن الجيش الأحمر للعمال و الفلاحين الصينيين!))

و سدد كشافتنا بنادقهم نحو رأس اثنين منهم. فسلما أسلحتهما في الحال و صرخا و خرّا على الأرض مثل خيطين من خيوط المكرونة!

و هكذا و من غير أن نطلق رصاصة واحدة اندفع رجالنا داخل ((الثغرة)) كالفيضان. و بدأوا في تقطيع أسلاك البرق و شل حركة جنود العدو. اما الثلاثون من النافخين بالأبواق الذين كانوا في طليعة الهجوم فقد أخذ كل منهم ينفخ في بوقه عندما كان رجالنا يتسللون كالأشعة الى المدينة. و في فترة و جيزة كان المكان كله يغلي. و اختلطت أصوات الأبواق بأصوات البنادق و المدافع فتحرك قلب كل من يسمعها. و في كل مكان كنّا نسمع أصوات جنودنا الشجعان و هم ينقضون على العدو، و صرخات جنود العدو و هم يحاولون الهرب. و قد أسرنا معظم الحامية – و أنقلب كثير منهم من على سريره و لم يكن لديه وقت ليرتدي ملابسه. و لم تستطع الفرار من البوابة الشمالية غير قلة منهم. كان هذا هو المنظر – لقد فرّوا هاربين بحياتهم تاركين وراءهم كل ما يمتلكون.

و في صباح ٥ كانون الثاني أعلنا تحرير تسون يي من الكومنتانغ. و جاء أهل المدينة يرحبون بنا، اصطفوا في الشوارع و هم يلوحون بالأعلام الصغيرة الملونة و يشعلون الصواريخ تحية الفرح لجنودنا، سعداء بالحياة الجديدة التي أشرقت عليهم.

عبور نهر الرمال الذهبية

شياو بينغ تانغ ((ميجور جنرال))

في ربيع ١٩٣٥، زحف جيش الجبهة الأولى من كوانغسي الى شمال كويتشو. هناك، و حول منطقة تسون يي و تونغ تز و تشي سوي التحمنا مع قوات الكومنتانغ التي جاءت لتقطع علينا الطريق، في معركة استمرت لعدة أشهر. و لكي نخترق حصار الأعداء الذين أخذوا يتزايدون في أعداد كبيرة، تقدمنا في ثلاث قطاعات نحو يونان في أواخر شهر نيسان ١٩٣٥.

و في ثلاثة طوابير متقدمة نحو الغرب، كان لواء الكادر الأحمر يسير في الوسط و كان عليه أن يحمي قادة الحزب و الحكومة.

كان لواء الكادر مكونا من فوجين من المشاة و فوج من القسم المخصوص. بالاضافة الى مجموعة من الكادر العالي. و أعضاء هذا الفوج فيما عدا مجموعة الكادر العالي كلهم من ضباط الكتائب و السرايا و هم شبان أقوياء من ذوي الخبرة الواسعة في القتال. و كنت قائدا للكتيبة الخامسة من الفوج الثاني منذ عام ١٩٣٢ حتى تاريخ دخولنا شمال شنسي عند نهاية المسيرة الكبرى.

و كانت يونان في شهر نيسان قائظة الحر لدرجة أن الانسان كان يشعر بلزوجة. و حتى لو لبس الانسان قميصا واحدا فقط فالعرق يتصبب غزيرا. و في حقول الرز الرطبة كانت سنابل الشتائل تنثني في الهواء كما لو كانت ترحب بنا. و التلال على الجانبين مغطاة بالحشائش و الزهور. كان النحل يطن بين الأزهار المملوءة بالرحيق و الفراشات يطرن مرفرفات من زهرة الى زهرة. كان المنظر في الربيع مبهجا. و لكن لم يكن لنا أن نتمتع به. و لم نكن نستطيع أن نتوانى أو نتريث، فخلفنا كانت قوات الكومنتانغ التي تزيد على مائة ألف جندي.

و قد بتنا ليلة واحدة في احدى القرى. و في منتصف الليل قمت بجولة استكشافية و عندما مررت بالقاعة التي يقيم فيها قادة الحزب و الحكومة لمحت ضوء مصباح ينبعث من داخل القاعة. مَن هذا الذي لم يأو الى فراشه من قادتنا حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ و بينما كنت أتبادل بعض العبارات مع الحارس اذا برجل يخرج من الغرفة. و عندما اقترب، تبين لي أنه الرفيق شو إن لاي. وقفت في هيئة الانتباه في الظلام و سألت: ((يا نائب الرئيس إنك لم تأو الى فراشك بعد؟))

فأجاب: ((كلا. آه، أهو أنت؟ هل أتممت جولتك التفتيشية؟ تعال الى الداخل لنتحادث.))

كان البيت فيما مض لأحد الاقطاعيين. و كان ذا طراز جميل. في الغرفة التي يقيم فيها نائب الرئيس كان هناك بضع كراسي أنيقة المنظر و منضدة مناسبة لذوق الكراسي – و على المنضدة استقر مصباح زيتي و بعض أدوات الكتابة، و كانت هناك أيضا حزمة من الورق. و على الحائط عُلِّقَت خريطة كبيرة كان نائب الرئيس يدرس عليها طريق التقدم. و في انعكاس ضوء المصباح الخافت كان وجهه يبدو أصفر و نحيلا، أمّا عيناه فلم يكن بهما بريقهما المعتاد. و سألني و نحن جالسين: ((كم عدد الرجال في كتيبتك الخامسة؟)) فأجبت: ((بعد الخسائر التي تكبدناها أصبحنا الآن مائة و عشرين رجلا من الرجال الأقوياء.))

و أخذ يتابع الاستفسار عن أحوال كتيبتنا أثناء المسيرة، عن الأسلحة و المعدات، و عن الروح المعنوية للجنود. و قد أجبته على كل الأسئلة.

فكر نائب الرئيس برهة ثم قال مبتسما: ((لقد أبلت كتيبتك بلاء حسنا في تسون يي و تونغ تز. و في المستقبل يجب أن تحافظوا على هذا المجد.)) ثم فتح علبة الكعك الذي على المنضدة. و دعاني للأكل. كانت هذه هي وجبة لمنتصف الليل التي كان يعدها له مراسله الخاص. فأجبته: ((من الأفضل أن تأكل أنت يا نائب الرئيس! أمّا أنا فقد أكلت كثيرا في طعام العشاء و ما زلت أشعر بامتلاء.))

و لكنه دفع العلبة نحوي و ضغط عليَّ لكي آكل، و لذا فقد تناولت نصف قطعة. و بينما كنت أمضغها، أخذت أنتظر استفسارات أخرى. و لكنه لم يسأل أسئلة أخرى.

و أخيرا قال: ((حسنا. لقد تقدم الوقت فلتذهب لتنال قسطا من الراحة.))

و عندما خرجت من حجرة نائب الرئيس أخذتني الحيرة. لقد استفسر نائب الرئيس عن الكتيبة بكل تفصيل. هل كان يقصد بذلك استطلاع عام، أم أنه كان يبحث عن كتيبة يمكن أن يعهد اليها بمهمة خطيرة؟ و تتالت ضربات قلبي بسرعة. و أسفت لأنه لم تكن لي الشجاعة الكافية لأسأل عن بعض الاستعلامات.

لم ترحل القوات في اليوم التالي. و جاءت الفرصة للرجال لكي يستحموا و يمونوا أنفسهم بالطعام. كان البعض يقشر الرز و البعض يرتق ملابسه و البعض الآخر ينظف البنادق أو يسن الحراب. كنت أجلس مع بعضهم تحت افريز المنزل نصنع صنادل من القش و أستمع الى اختلاط الأصوات و الأحاديث.

((ان العدو في اثرنا. و لكننا أتينا هنا لنصمد. أليس غريب هذا!))

((ما الغريب في هذا؟ سواء أكلنا في انتظار مجيء العدو لنقاتله، أم أن الترتيبات تعد لمهمة خطيرة.))

و سأل أحدهم: ((أي مهمة خطيرة؟ هل هي الزحف نحو كونمينغ أم عبور نهر الرمال الذهبية؟))

و أحدث هذا السؤال سكونا. و أخذ الجميع يحدق فيَّ. فقلت: ((من يدري؟ ان القادة من الرفاق لم يعلنوا عن أي تعليمات.))

و بعد الظهر كانت الاستعدادات قد تمت تقريبا. الملابس قد غُسِلَت و رُتقت. و حقائب المؤونة قد امتلأت بالطعام. و البنادق و الحراب لمعت. و ظل الرجال

يسألونني لماذا لا نغادر. و قد كنت أنا نفسي قلقا. و أسئلتهم هذه جعلتني أشعر ضجرا. و لهذا خرجت لأتصيد الأخبار.

كانت القرية متوسطة الحجم و الأهالي عددهم يزيد على ثلاثمائة عائلة. كانت هادئة و ساكنة، بأكواخها و سياجها من القش، تحيطها حقول الرز الخضراء. لم تكن حالة الأهالي سيئة للغاية، لقد كانوا أيسر بكثير من أهالي كويتشو. و استطعت أن أتبين من ملابسهم أنَّ بينهم بعض القوميات الأقلية. و لكن من كل بيت هرب الشباب و تركوا الشيوخ و الأطفال وحدهم. لقد نشر الكومنتانغ كل أنواع الاشاعات الكاذبة بلا شك – فهكذا كانوا يفعلون عندما تصيبهم الهزيمة في أي مكان.

و أمام مدرسة ابتدائية مهجورة التقطت خريطة يونان من بين كوم من بقايا أوراق تتناثر مع الريح. لقد اعتمدنا على القيادة و على المرشدين ليحددوا الطريق. و الآن، هذه الخريطة و لو أنها بسيطة إلا أنها ستساعد كثيرا. و من الخريطة كان واضحا أنه علينا أن نعبر نهر الرمال الذهبية اذا اردنا أن نزحف الى الشمال لمقاومة اليابانيين. ان نهر الرمال الذهبية الذي يحرسه العدو في غيرة سيجابهنا بعراقيل أخرى و اذا كنّا سنعبر عبورا مسلحا فستنشب معركة رهيبة.

و عند العودة مررت بالبيت الذي تقيم فيه قيادة الحزب و الحكومة. كان الناس يسرعون الى الداخل و الخارج. و كان يبدو أن هناك اجتماعا منعقدا. و بالرغم من أني كنت أعرف بعضا منهم، غير أني لم أر أنه من الملائم أن أسأل سؤالا. و ذهبت الى كتائب أخرى و لكني وجدتهم في نفس حيرتي. و كان يبدو أن هناك مشكلة هامة تفرض نفسها.

و قبل ظهر اليوم الثالث، قيل أن العدو الذي يطاردنا يتقدم في سرعة، و قد بدأ يحدق بنا. و لم تصدر بعد أوامر بالتحرك. و بدأ كل محارب يشعر بقلق متزايد. و عند الظهر لمحت مراسل اللواء يتجه الى مركز قيادة كتيبتنا.

و هُرِعتُ لأسأل: ((هل آمر اللواء يسأل عنّا؟))

فأجابني المراسل: ((كيف عرفت؟))

و على الفور تأكدت من صحة الأمر، و انطلقتُ، يغمرني فرح كبير أجري نحو مركز قيادة اللواء و جذبت معي القمسار السياسي ((لي)).

كان المنزل يعج بالناس. و الى جانب آمر اللواء تشن كنغ و القمسار السياسي سونغ جن تشيونغ، كان هناك أيضا بعض الرفاق المسئولين من السلطة المركزية عرفت بعضهم. كان هواء الغرفة مثقلا برائحة التبغ الجاف. و كان الاجتماع في تقدم. و قال آمر اللواء عندما شاهدنا ندخل: ((لقد قررت السلطة المركزية أن تعبر قواتنا نهر الرمال الذهبية. و وكلت الى اللواء عملية أسر المعابر و نحن بدورنا قد قررنا أن نبعث الفوج الثاني كقوة طوارىء للمقدمة. و الكتيبة الخامسة كطليعة. فمهمتكم هي: أن تأسروا المعابر التي على الشاطىء مهما كلف الثمن. و بكل سرعة ممكنة و أن تغطوا القوات أثناء عبور النهر. و لتبدأوا بمجرد أن تجدوا أنفسكم جاهزين! و أشار الى رفيق يرتدي زيا أسود و قال: ((هذا هو الرفيق لي مبعوث من السلطة المركزية، و عليه أن يقود عمل المجموعة و سيساعدكم في انجاز مهمتكم. و ستكون له المسئولية العامة.))

صافحنا الرفيق لي و تبادلنا معه بضع كلمات حول ميعاد البدء، ثم قفلنا عائدين الى مركز قيادة الكتيبة.

تمت تعبئة الجنود، و بعد وجبة كاملة، خرجنا بمعداتنا الخفيفة في طريق مختصر تجاه نهر الرمال الذهبية. و مشيت مع هوو هاي يوان نائب آمر الفوج خلف سرية الطليعة، و كان المقرر السياسي و فريق العمليات في المؤخرة. و كان كل الكادر في حالة معنوية عالية بعد الانتصارين العظيمين اللذين حققوهما في تسون يي و تونغ تز. و قد أصابوا في اليومين السابقين قسطا من الراحة و الانتعاش. كان جنود الطليعة لكتيبة الطوارىء الأمامية يسيرون في خفة و نشاط و قد علتهم بهجة مفرطة. و مع أن الدرب كان وعرا و غير مميز في بعض الأماكن، و بالرغم من الشمس المحرقة التي جعلتهم يتصببون عرقا، فقد ساروا أكثر من عشرة لي في كل

ساعة بدون توقف. و لم يشك أحد و لم يتخلف أي شخص. لقد ظلوا سائرين طوال الليل. و عند طلوع النهار استراحوا لمدة عشر دقائق التهموا خلالها الرز البارد الذي حملوه معهم و شربوا بضع جرعات من الماء البارد. ثم واصلوا السير في طريقهم و قطعوا مسافة تزيد عن ٧٠ لي.

و عند نقطة تبعد ٦٠ لي عن نهر الرمال الذهبية، استراحوا قليلا ليستردوا أنفاسهم بعد أن تسلقوا جبلا. و خلال فترة الراحة أخذنا ندرس مع الرفيق لي كيف نأسر معابر النهر و كان من المقرر أن نبدأ بالقضاء على حرس العدو على ذلك الشاطىء للنهر و نستولي على القوارب لنقوم بعبور مسلح. ثم نوقف حركة العدو على الشاطىء المقابل و نحمي المعابر لنتيح الفرصة للقوة الرئيسية كي تعبر.

و عند الغروب اقتربنا من ضفة النهر. و على مسافة منا كانت كتلة من الظلام الحالك لم نستطع أن نميز فيها الأشجار من انحدار الجبل. كان نهر الرمال الذهبية يمتد أمام الجبال كصفحة رمادية اللون. و بين الجبل و النهر تلألأت بعض الأنوار و كأنها عيون العدو تتلصص علينا. من يدري لعل العدو قد اكتشف أمرنا؟ ربما هم على استعداد في انتظارنا. و لكن ما علينا من هذا كله، فسوف نستطيع أن ننهي الأمر بكل تأكيد. نحن الآن نقترب من ضفة النهر. و أخذت أردد الأوامر: ((لقد وصلنا نهر الرمال الذهبية، فاستعدوا للتنفيذ!))

في الظلام جاء آمر السرية يعدو لاهثا. و قدم تقريرا عن الموقف. لقد وجدنا أن العدو على علم بدخول الجيش الأحمر يونان. و لمّا خشي أن نقوم بعبور مسلح لنهر الرمال الذهبية فقد عسكر في الأيام القليلة الماضية بقوات على خط يمتد مئات الكيلومترات بمحاذات الشاطىء المقابل، و وضع كل المعابر تحت الحراسة ثم جمع كل القوارب و أرساها الى الشاطىء المقابل محطما كل المواصلات. و ظل يبعث بكشافة في ملابس عادية عبر النهر، ليتصيدوا المعلومات. و من المحتمل أن يكون هؤلاء العملاء قد عبروا النهر اليوم ليبتزوا الأهالي من جديد، تاركين القوارب التي عبرت لهم الى جانب النهر. و عندما ذهب كشافونا الى هناك، ظن الملاحون أن

رجالهم قد عادوا فصاحوا قائلين: ((اذن فقد عدتم!)) فأجاب الكشافون: ((لقد عدنا!)) و أسرعوا بانتهاز الفرصة، و في عدو سريع كانوا عند الملاحين و أصبحت القوارب غنيمة لنا.

و عندما انتهى آمر السرية، أسرعت الى ضفة النهر، و بعد تهدئة الملاحين الذين أصابهم الرعب، حاولت أن استخرج منهم بعض المعلومات عن الموقف على الشاطىء المقابل. تلعثم الملاحون في الكلام و أخذ أحدهم يعين الآخر. و من مجموع ما قالوه كان الموقف يبدو هكذا. على الشاطىء الآخر تقع بلدة صغيرة بها مكتب للضرائب يقيم به ثلاثون شرطيا أو أكثر. و في ذلك اليوم وصلت كتيبة من القوات النظامية و عسكرت في الجناح اليميني للبلدة. و في وسط البلدة و الى جانب النهر، كان هناك رصيف من الحجر. و كان دائما يحرسه شرطي واحد، لكن لمّا أصبح الموقف أشد عنفا، أضاف العدو رجلا آخر في نقطة الحراسة. و مع أن العدو كان يخشى أنه ربما يعبر الجيش الأحمر النهر، لكنهم لم يكونوا يظنون أن هذا المعبر هو الرئيسي. و لا كانوا يحسون أن الجيش الأحمر سيأتي قريبا. و لذا فقد كان دفاعهم هناك متراخيا.

و بعد التشاور مع النائب آمر الفوج، قرر أن نعبر فورا. و قد استجوب المقرر السياسي الملاحين واعدا اياهم بمكافآت. و لمّا كان العدو يعامل هؤلاء الناس معاملة قاسية، فقد كانوا على أتم استعداد ليقولوا كل شيء، عندما رأوا أنهم سيربحون شيئا: ((في خدمتك يا سيدي! في خدمتك!))

أمرت السريتين الأولى و الثانية أن تعبرا معي، تاركا خلفي نائب آمر الفوج، و المقرر السياسي، و فريق العمليات. كان على جنود السرية الثالثة أن يخفروا شاطىء النهر و يطلقوا النار لتدعيمنا اذا حدث أي شيء للقوارب اثناء عبورها.

انتشرت السرية الثالثة على الساحل، و أخذوا يختبرون بنادقهم على ضوء مصابيح القرية. و بعد أن أخبرتهم بما يجب علينا أن نفعله بعد أن نصل الى

الشاطىء الآخر، و ماذا عسانا أن نفعل في حالة الطوارىء، نزلت مع رجال السريتين الأولى و الثانية في هدوء و ركبنا القاربين، بدأنا نبتعد عن الشاطىء.

كانت ليلة هبت فيها الريح، و أثناء عبورنا النهر الذي يبلغ عرضه أكثر من ٣٠٠ متر، كان القاربان يتلاطمان مع أمواج التيار السريع و أخذ بعض الرجال يساعدون الملاحين في التجديف. و البعض الآخر تلاصقوا رافعين بنادقهم خوفا من الابتلال برشاش الماء.

أخذنا نقترب من الشاطىء شيئا فشيئا. و تراءى لنا الآن الخط الخارجي للبلدة، و ازداد بريق الأضواء. كنّا نستطيع أن نرى أشباحهم تتحرك، و كانت أصواتهم مسموعة.

ان معركة رهيبة على وشك أن تحدث. و خفق قلبي. و عبأت خزانة بندقيتي الموزر، و أخذت أنظر في تصميم الى البلدة التي أخذت تقترب.

عندما لامس القارب أرض الشاطىء، دفعت الاثنين اللذين كانا يجلسان الى جانبي برفق فقاما بسرعة و قفزا الى الشاطىء و تسلقا السلالم الحجرية مشهورين بنادقهم.

و صرخ صوت بلهجة يونان المحلية: ((هاي! أنتم، لماذا تأخرتم في العودة؟))

و لكن الاثنين لم يجيبا في الحال. عندئذ سمعت صوتا يقول: ((لا تتحرك!)) و بمجرد أن سمعت ذلك، قدت الآخرين الى أعلى السلم و أسرنا جنديا حراسة العدو قبل أن يدريا باي شيء.

لم تكن اعترافات الأسيرين تختلف كثيرا عن اعترافات الملاحين. و لذا فقد كلفت السرية أن تذهب على الفور الى الشارع و تهاجم قوات الكومنتانغ النظامية، كما كلفت السرية الثانية بأن تهاجم الشرطة. و بقيت على رصيف الشاطىء. على أن يعودوا اليَّ بالأخبار.

و أرسلت القوارب بالامدادات.

و تبعا لخطة موضوعة، جمعت جنود المراسلة و كلفتهم بأن يجمعوا بعض الأعشاب و يحرقوها بجوار النهر، كاشارة الى نجاح كتيبتنا في عبور النهر.

و اشتعلت النار بسرعة و انعكس وميضها على المياه المتلألئة. الآن و قد أعطيت الاشارة، فان كل شيء يتوقف على التقدم الرائق لعمليات السرايا. و بينما كنت أفكر، دوت عدة طلقات في الشارع، و تبعتها طلقات أخرى ثم سكون. ما معنى هذا؟ و شعرت بقلق عندما عاد مراسلا السريتين الأولى و الثانية يعدوان.

و كما يبدو فان الموقف قد تطور على هذا النحو: عندما وصلت السرية الأولى مركز قيادة العدو صاح الحارس: ((مَن هناك!)) فأجاب الأسيران حسب التوجيه: ((رجالكم! الشرطة.)) و قبل أن يلقي الحارس بأسئلة أخرى، اندفعت الفصيلة الأمامية و قبضت عليهم. و بعد استجواب قصير، دخل جنود السرية الى الفناء و عَدوا نحو حجرات متفرقة. و فتحوا الأبواب بركلات من أقدامهم صائحين: ((ارفعوا أيديكم، سلموا أنفسكم و أسلحتكم!))

تطلع جنود العدو في غباء. ثم رفعوا أيديهم ببطء و في حيرة قالوا: ((لقد وصلنا اليوم فقط، ربما يكون هناك التباس!))

نظر جنود العدو الى بعضهم في ارتباك و ساروا بين الحراب المتوعدة الى الفناء للتجمع. فقط استطاع آمر كتيبة الأعداء و معه بضع ضباط، كانوا يقيمون في حجرة منفردة صغيرة أن يهربوا بعد أن أطلقوا بضع أعيرة نارية. و لمّا كان الظلام مخيما و الطريق غير مألوف بالنسبة لنا، فلم نحاول أن نلاحقهم.

مرت السرية الثانية بنفس تجربة السرية الأولى. فقد تنكروا في شخصيات دافعي الضرائب و دخلوا مكتب الضرائب. و وقع الشرطة مثلما توقع السمكة في الشبكة حتى قائدهم لم يستطع الفرار.

كان كل شيء يجري على ما يرام. و بانفعال أعدت بندقيتي الموزر الى جرابها، و كلفت المراسل أن يشعل نارا على الشاطيء كاشارة ثانية.

و لمّا تم الاستيلاء على رصيف النهر، سرنا في اتجاه البلدة على مهل. و عندما وطأت قدمي أرض الشارع المرصوف و رأيت كتلة المنازل السوداء، اجتاحني شعور بالانهاك و في نفس الوقت غمرتني فرحة عارمة عندما كنت أفكر في اللحظة التي سأجد فيها مكانا أصيب فيه شيئا من الطعام و أنام كما يحلو لي النوم. كنت أتشاور مع المقرر السياسي عندما أقبل نائب آمر الفوج قائلا:

((ان آمر اللواء يكلفك بأن تتقدم مع رجالك لمسافة ٥٠ لي على امتداد طريق الجبل الذي يؤدي الى خوي لي لتقوم بالاستطلاع. و بذلك نستطيع أن ندعم دفاعنا عن المعابر و نوسع نفوذنا.))

و بسرعة تجمعت القوات في الشارع. و أصر كل واحد منهم على أنه يستطيع مواصلة السير هذه المسافة. و بالرغم من أني كنت أعلم أنهم يعانون الجوع و أن واحدا منهم لم تكن لديه بقية من قوة، و لكنني لم أعجب! فقد ساروا مسافة أكثر من ٢٠٠ لي بدون راحة حقا. و دون أن يأكلوا أي شيء سوى لقيمات من الرز البارد أو الخبز المبلول ليقيموا أودهم. و لكن الوقت لا يتسع الآن لنطهوا طعاما، و من غير المحتمل أن نعثر على أي مطعم في المنطقة حولنا. فسرنا للأمام. و عندئذ لاحظت لافتة معلقة على أحد الحوانيت. فاقتربت منها لاتبينها بوضوح. فظهر أنها لمحل يبيع الفطائر. و فكرت في نفسي: ((حسنا. ان أي شيء من الفطائر أحسن من لا شيء.))

دفعنا الباب و دخلنا. كان الظلام دامسا. صحنا على صاحب الحانوت فلم نسمع جوابا. ربما قد هرب عندما سمع طلقات الرصاص. أشعلنا مصباحا فوجدنا كمية من عجين الفطائر أشرفت على العطب. أعمل الرجال عيدان الأكل في العجين و رفعوها مرات و مرات يشمون رائحته.

و فكرت فوجدت أنه ليس من شيء آخر سوى الفطير و كان علينا أن نعده بأنفسنا.

جمعنا الفطير كله و وزناه فكان ٣٠ كاتيا، و قسمناه على الرجال بمعدل ثلاث أوقيات لكل واحد. و التهم بعضهم نصيبه في لمح البصر. و همهم بعضهم و هو يمسح فمه: ((أياه! انها صغيرة جدا. لم أعرف حتى مذاقها!)) و عارضه رجل آخر: ((لا تدمدم. ان لم نكن نحن كتيبة الطليعة، فهل كنت ستحصل حتى على مثل هذه الكمية!))

و بعد تناول ((الوجبة)) كتب رئيس الفريق ملحوظة على قصاصة ورق و ترك على المنضدة لفة بها أكثر من عشرة دولارات من الفضة. و عندئذ أطفأنا المصباح و أوصدنا الباب و واصلنا السير.

و خرجنا من البلدة و بعد مسيرة ١٧ لي في طريق حجري خارج البلدة، وصلنا الى أخدود على يسار الطريق، و هناك وجدنا بقعة من الأرض مسطحة نسبيا فقررنا أن نعسكر عليها. و أخذ الرجال يجمعون حطب الوقود و الماء. و بعد أن حددت أعمال طهو الرز و غلي الماء على المسئولين عنها، مضى الجميع الى النوم مفترشين الأرض محتضنين بنادقهم.

و مرَّ بعض الوقت قبل أن أشعر بشخص يهزني، فأفقت و فتحت عيني لأجد شياو نائب آمر الفوج يقول لي في لهجة عاجلة: ((قم و أسرع. و استمر في التقدم!))

قمت و سألته في دهشة: ((هل في الأمر شيء!)) فأشار نائب آمر الفوج الى شبح جبل مرتفع على بعد قائلا: ((تقدم في هذا الطريق لمسافة ٤٠ لي و ستصل قمة هذا الجبل. و اذا تمكن العدو من احتلالها، فانه يستطيع أن يهددنا بشكل خطير من مثل هذا الموقع المهم. ان أوامر آمر اللواء هي وجوب احتلال تلك البقعة قبل الفجر لكي يتسنى لنا أن نتقدم أبعد من ذلك، و نعزز الدفاع عن المعبر.))

فسالت في تشكك: ((لقد كان على فرقتنا و قادة الحزب و الحكومة أن يعبروا خلال يوم. فلماذا نطيل الدفاع عن المعبر؟))

فأجاب نائب آمر الفوج مبتسما: ((يبدو الأمر بسيطا بالنسبة لك، و لكن القوة الأساسية كلها ستأتي من هذا الطريق.))

فسألته: ((ماذا! هل سيأتي السلاح الأول و الثالث من هذا الطريق؟)) فأومأ آمر الفوج برأسه و قال: ((هكذا!))

و الآن قد أتضح كل شيء. فالاجتماع السريع الذي عقده القادة قبل الزحف، و استفسارات شو إن لاي نائب الرئيس عن كتيبتنا و انشغال باله، كل هذا لم يكن فقط للفرقة المركزية و لكن لتحركات القوات كلها. و لحسن الحظ أن المعبر تحت سيطرتنا الآن و مر بمخيلتي منظر القوات الشقيقة و هي تعبر النهر في طابور لا ينتهي. سوف يقولون لبعضهم البعض: ((ان هذا الطريق قد فتحه لواء الكادر.)) و بينما كنت شاردا مع هذا الخاطر اذ بي أشعر باضطراب عندما أحسست بالمسؤولية الثقيلة التي وضعت على كاهل كتيبة الطليعة. فجمعت على الفور قادة السرايا و كلفتهم ابلاغ الرجال أن يسرعوا في الأكل و يكونوا على أتم استعداد للبدء.

و تضجر الرجال عندما أفاقوا من احلامهم، سمعوا بأن عليهم الارتحال فورا: ((لقد سيطرنا على المعبر و عبرنا النهر، ففيم العجلة الآن!)) ((ان الظلام حالك و لن تستطيع أن تتبين سبيلك على امتداد الطريق و الأفضل أن نرحل في الصباح.)) ((لماذا الاسراع! لا عدو هنا و لا قتال.))

و على أية حال فعندما شرح لهم المقرر السياسي معنى احتلال قمة الجبل و تعزيز الدفاع عن المعبر و جعلهم يفهمون أنهم الوحدة الأمامية للجيش كله، تغير موقفهم على الفور.

و صاح صوت أجش: ((هيا، سنقطع مسافة ٤٠ لي و نعسكر فوق قمة الجبل!))

و حرك هذا القول المجموعة كلها.

((فلنحتل قمة الجبل و نغطي عبور الجيش!))

((و لنقاتل في طريقنا الى قمة الجبل لنرحب باخوتنا الكبار!))

ثم ذهبوا ليحثوا الطهاة على اعداد الطعام حتى يستطيعوا أن يأكلوا و يرحلوا، و لم يرغب أحد في البقاء لوقت أطول.

عندما بزغ الفجر بلغت الكتيبة قمة الجبل في الميعاد المحدد، بالرغم من أن الكل كاد يموت تعبا. كانت قمة الجبل عبارة عن قطعة من الأرض مسطحة نسبيا. و على مسافة امتدت سلسلة من التلال اللانهائية. و في اتجاه تلك الكتل من التلال، امتد الطريق المتعرج الذي يوصل الى خوي لي. و قررنا أن نحتل التلين المتاخمين للطريق على مسافة من موقعنا. فقد كان هذان التلان يحدقان بالطريق المؤدي من خوي لي الى قارب العبور.

و عندما كنّا نتقدم في اتجاه التلال، أعطتني الفصيلة الأمامية للطليعة انذارا. و بعد عشرين دقيقة من المناوشات، أتت حشود العدو.

حقا. لقد كان هذا هو درس جاء في حينه. فاذا كنّا قد بتنا ليلة أمس في الأخدود، لكان علينا أن ندفع الثمن غاليا في هجوم أكبر.

و لمّا كان العدو يجهل مواقعنا، فلم يجرأ على الهجوم. و نحن أيضا بقينا ساكنين. و هكذا وقفنا متواجهين. و في الساعة الرابعة بعد الظهر وصلت كتيبة مدفعية ثقيلة لفوج القسم المخصوص و الكتيبة الرابعة.

و كان آمر اللواء تشن و القمسار السياسي سونغ يسيران في المقدمة و الفرحة تبدو عليهما. و كانت أول عبارة واجهانا بها هي: ((حقا انكم موفقون!)) و أثناء تقديمي تقريرا عن الموقف أخذت ألاحظ مواقع العدو مع الآمر.

و بعد هنيهة دعا آمر اللواء ضباط كتيبتنا و الكتيبة الرابعة و كتيبة المدفعية الثقيلة للاجتماع لتحديد الأعمال. كان على كتيبتنا أن تهاجم العدو عن يمين الطريق

من فوق قمة التل من ناحية اليمين. و على الكتيبة الرابعة أن تهاجم العدو عن يسار الطريق من على قمة التل من ناحية اليسار. بينما على كتيبة المدفعية الثقيلة أن تحمي الرجال من فوق قمة التلال في الاتجاهين. و بعد أن نقهر العدو علينا أن نطارده و نستمر في ذلك لحين صدور أوامر أخرى.

و تحت القيادة الموحدة لآمر اللواء، انفتحت أفواه المدافع الثقيلة. و دوت أصوات الأبواق. و قدُّت الهجوم. و تصدع العدو و إنهار. و أصابه الفزع فهرب، و اختلط حابله بنابله متبعثرا خلال الجبال و الحقول. و أخذنا نطارده لمسافة ٢٠ لي. فقتل فريق منه خلال العمليات، و أرتمى آخر على الأرض مدعيا الموت، و هوي البعض من المنحدر ملاقيا حتفه. و بينما كنّا نتعقب العدو الى ظهر احدى القرى جاء أحد المراسلين راكبا جواد و أحضر التعليمات من آمر اللواء: ((توقفوا عن مطاردة العدو. و عسكروا في المنطقة و كونوا على حذر.))

جئت بالقوات الى منحدر خلف القرية لنعسكر. و قد أعيانا التعب و الانهاك. سقط البعض على الأرض و لم يتحرك، و حتى دون أن يطلبوا طعاما أو ماء. و آخرون عندما جلسوا لم يستطيعوا أن يجمعوا قواهم لينهضوا.

و قبل الغسق، بدأ الناس يصيحون فجأة و يعدون نحو جانب التل. و تطلعت فوجدت عددا كبيرا من قوات تمر عند قاعدة التل. كانت الوحدة الأمامية تقترب من القرية، بينما امتدت المؤخرة الى آخر ما يستطيع أن يدركه البصر. و سمع الرجال المراسل يقول انها قوات اللواء الثالث، فنسوا تعبهم و نعاسهم و انطلقوا يعدون و يصيحون بالتحيات و التهاني، آملين أن تصل أصواتهم الى مسامع رفاقهم.

أبطال نهر تاتو

يانغ ته تشيه ((جنرال))

كنت في عام ١٩٣٥ قائدا للواء الاول للفرقة الاولى من السلاح الاول في الجيش الأحمر. و في شهر أيار من ذلك العام كنا قد عبرنا بالقوة نهر الرمال الذهبية الذي يجري على امتداد الحدود ما بين مقاطعتي ستشوان و يونان. و وصلنا الى جانب نهر تاتو في جنوب ستشوان بعد مسيرة بضع مئات من الكيلومترات.

و نهر تاتو هو احد روافد نهر اليانغسي. و يبلغ عرض النهر ٣٠٠ متر، و يصل عمقه في بعض الاماكن الى ١٢ مترا. و على الضفتين ارتفعت سلسلة متصلة من الجبال الشاهقة. و عندما وصلنا كان النهر في وقت فيضانه. و كان الماء ينحدر في دوامات، و يحدث زبدا يتألق في ضوء أخضر عند اندفاعه في اتجاه التيار. و هدير الماء يسمع على مسافة بعيدة. و كانت هذه البقعة دائما محور تنافس عسكري. كان جيانغ كاي شيك يحلم في عبث ان يسحق الجيش الأحمر هنا مرسلا اثرنا مئات الألوف من قواته كذلك أمر أمراء الحرب في ستشوان بأن يبعثوا بقواتهم المتصدعة لتحرس نهر تاتو و جسر لوتيغ.

و لتحطيم مؤامرة العدو، و لتنفيذ خطة السير الى الشمال لمقاومة اليابانيين، كان على الجيش الأحمر ان يعبر نهر تاتو. و قد وكل هذا العمل المجيد الى اللواء الأحمر الاول، الذي تحول الى وحدة طليعية قبل ان نبدأ من مينينغ. و قبل ان نعبر قمنا باستعدادات نهائية. و من الاستكشافات علمنا ان العدو قد وضع ثلاثة مما يسمى ((بالأعمدة الفقرية من الألوية)) بالقرب من جسر لوتينغ، لواء على الساحل المقابل لأنشونتشاع لكي يسيطر على قارب العبور، و لوائين على بعد ٣٠ لي في اتجاه أسفل النهر.

و بعد تحليل الموقف قررنا ان نعبر عند أنشونتشانغ.

و أنشونتشانغ التي تقع على الضفة الجنوبية لنهر تاتو في ناحية الغرب، هي عبارة عن بلدة صغيرة تسكنها حوالي مائة اسرة. و كانت تحرسها فرقتان من فرق العدو. و زاد من صعوبة العملية المهمة، ان ليس هناك غير قارب واحد على امتداد النهر. فكان على الجيش الأحمر لكي يعبر النهر ان يبيد العدو على الضفة الجنوبية، و يسيطر على القارب.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء، عندما وصلت الى منحدر فسيح يبعد عن أنشونتشانغ بأثنتي عشر لي، بعد مسيرة ٢٤ ساعة تحت المطر. و على المنحدر تبعثرت عدة منازل. و كنا نستطيع ان نسمع هدير مياه نهر تاتو و عندما دققنا النظر صوب أنشونتشانغ كنا نستطيع ان نرى اضواء متناثرة شمال التل، كانت اشبه بالنجوم في ليلة شتاء حالكة الظلام.

قررنا ان نتوقف لبعض الوقت، و ننتظر أوامر أخرى. و كان الجنود قد تعبوا بعد مسيرة ١٤٠ لي في ٢٤ ساعة. و في اللحظة التي توقفوا فيها سقطوا على الأرض و راحوا في نوم عميق. و بينما كانت القوات تنال قسطا من الراحة، سعيت الى أهل المنطقة لأتقصى بعض المعلومات.

و جاء أمر من لقيادة قوموا الليلة بهجوم مفاجىء على العدو عند أنشونتشانغ، و يقود القمسار السياسي لي الفوج الثاني على الشاطىء في مواجهة العدو على بعد ١٥ لي في اتجاه اسفل النهر، ليقوم بهجوم كاذب لكي يجذب قوة العدو الرئيسية، و على الفوج الثالث ان يبقى في مكانه ليحمي مركز القيادة.

بدأ تنفيذ القرار على الفور. و نهض الجنود المتعبون من الارض الموحلة و واصلوا السير نحو أنشونتشانغ.

كان الظلام دامسا و المطر يتساقط رذاذا. و تلمسنا طريقنا الى الامام و قطعنا حوالي ١٢ لي و اصبحنا على مقربة من أنشونتشانغ. و تفرقت الكتائب الثلاث للفوج الاول، و اتخذت سبلا مختلفة مندفعة كثلاثة خناجر نحو العدو.

و لم يكن العدو يتوقع ان يأتي الجيش الأحمر بمثل هذه السرعة. و كان بعض الضباط يلعبون ((الماهجونغ)) في اقسامهم.

و لاحظ حرس العدو مقدمتنا. فسألهم: ((من أي وحدة انتم؟)) (ظانا أنهم من رجاله). فردت اصوات جنود الجيش الأحمر كالرعد في سماء مظلمة: ((نحن الجيش الأحمر! ارفعوا ايديكم و سلموا اسلحتكم و سنبقي عليكم!))

و اطلق العدو نيرانه في هلع، ((بوم ... بوم!)) و لكن بعد فوات الأوان، انفتحت نيران بنادقنا من كل الاتجاهات و من قاوم فقد كان له أسوأ مصير، و اصبح بعضهم اسرى لنا، و فر الباقون. و انهارت كتيبتان للعدو في اقل من نصف ساعة. و قد اعطونا فرصة ضئيلة لنجرب قوتنا.

احتللنا أنشونتشانغ – كنت اجلس في حجرة صغيرة قلقا على القارب. عندما سمعت احد يصيح: ((من هناك؟)) ثم ((قفوا سلموا اسلحتكم!))

كان هؤلاء هم جنود العدو المكلفين بحراسة القارب. و كانوا قد عادوا لتوهم من جانب النهر، غير عالمين بحقيقة الموقف، فخضعوا و سلموا اسلحتهم بوداعة. و بسرعة كلفت جندي المراسلة ان يرسل آمر فصيلة العدو الاسير الى الفوج الاول، و لهم ان يستخدموه في عملياتهم لضمان القارب و تأمينه.

و بعد جهود مضنية نجح الفوج الاول في الحصول على القارب الذي كان املنا الوحيد، لعبور رجالنا النهر. و اهم ما في الامر انه لم يكن هناك ملاح. و على أي حال فلم نكن على استعداد. و لذا فقد ارجىء امر عبور النهر الى اليوم التالي. و في تلك الليلة لم يغمض ليَ جفن، و اخذت اذرع غرفتي التي تقع عند آخر الشارع، في أنشونتشانغ، و اشحذ ذهني بالتفكير في حل لمشكلة عبور النهر. و كنت اضطرب لفكرة الفشل في العبور.

فتحت النافذة لريح الليل. كان كل شيء في الخارج ساكنا. فيما عدا بضع طلقات متقطعة. انقشعت السحب السوداء و ظهر القمر باهتا. و التلال على الشاطىء الآخر لا يظهر منها إلا شيء ضئيل.

اخذت اسأل نفسي مرات و مرات: ((كيف سنعبر هذا النهر الهائج العريض؟)) رفعت رأسي من النافذة. كان الليل لا نهائيا. و اخذت علامات الاستفهام تتكاثر في ذهني. و عندما تذكرت كلمات قائد الفرقة، اضطربت من جديد. و لكن ما الفائدة؟ فنحن نستطيع فقط ان ننتظر حتى الغد. و تنفست في عمق.

و اخيرا انبثق الفجر. كان الطقس جميلا، و قطع من السحاب الأبيض تطفو في زرقة السماء اللازوردية. و بدت سلسلة الجبال العالية على ضفتي النهر اكثر مناعة من أي وقت. و بين هاتين السلسلتين كان الماء يندفع في فوران. و من خلال المنظار المقرِّب كان كل شيء على الشاطىء الآخر واضحا. هناك، و على بعد لي واحد تقريبا من القارب كانت تقع مزرعة صغيرة. و كان يحيط بالبيوت سياج بارتفاع نصف قامة الانسان تقريبا و كانت تحيط بموقع القارب صخور سوداء. و قد أقيمت التحصينات في مساحات وعرة. و ربما كانت القوة الاساسية لفوج العدو مختبأة في المزرعة. و كان من الواضح ان العدو ينوي القيام بهجوم مضاد على الجيش الأحمر بعد عبوره النهر و ارغامه على التقهقر الى الماء قبل ان يتقدم خطوة واحدة بعد العبور.

فكيف اناجز العدو الماكر و قررت ما يلي: ((من يبدأ بإنزال الضربة الأولى يكتب له النجاح!))

كلفت بطارية المدفعية ان تركز ثلاثة مدافع وعدة مدافع رشاشة ثقيلة في مواقع ممتازة. و اخذ جنود مدافع الرشاشات الخفيفة ذخيرتهم و تحركوا الى مواقعهم عند ضفة النهر في تستر.

تم اعداد الاستحكامات النارية، و لكن عبور النهر بقي سؤالا محيرا.

و في الليلة الماضية كنت قد استعرضت في رأسي كل الامكانيات السباحة كانت مستحيلة، حيث ان عرض النهر يبلغ ٣٠٠ مترا. فاذا خارت قوى احدهم فسيجرفه التيار السريع.

و قد فكرنا في انشاء جسر و لكن التيار بسرعته التي تبلغ أربعة امتار في الثانية لن يمكننا من ان نضع لوحا واحدا. و يمكن فقط اقامة دعامات. و كان القارب هو الأمل الوحيد، و لذا فقد كلفت آمر الفوج الاول ليبحث عن بعض الملاحين.

و بعد ان طافت القوات بالوديان المحيطة، عثروا على اثنى عشر ملاحا وعدوا بأن يعبروا بنا الى الشاطىء المقابل. و لكن كان هناك قارب واحد. لذا لم يكن يتسنى للكل ان يذهبوا مرة واحدة. و وكلت الى قائد الفوج الاول مسئولية اختيار الرجال الذين يعبرون في المرة الاولى. و عندما علم الجند ان هناك ترتيبات تُجرى لتنظيم فريق لعبور النهر، احاطوا بآمر الفوج و طلبوا ان يعبروا في المرة الاولى كطليعة.

مرت ساعة، و يجب ألا نؤخر العبور دقيقة واحدة. طلب آمر الفوج مشورتي قائلا: ((ماذا نفعل؟)) فنظرت الى الجنود بفرح يشوبه القلق ... فرح لانهم جميعا بدوا شجعانا، و القلق لانه اذا استمر الموقف على هذه الحال فستسوء الامور معنا.

قلت لآمر الفوج: ((ستقرر أنت أي الوحدات ستذهب.)) فقرر ان يرسل اثنى عشر رجلا من الكتيبة الثانية التي تتجمع الآن خارج المنزل.

كان كل شيء ساكنا من حولنا، فيما عدا اندفاع الماء و هديره. ((سيوتغ شانغ ليه، تسنغ هوى مسينغ، ليو تشانغ وفا، تشانغ كه بياو ...)) – و بدا الرضى و الاطمئنان على اولئك الذين تليت اسماؤهم.

و نوديَ على ستة عشر اسما. و عندما نظرت الى اولئك الصاحب الأشداء، احسست ان آمر الفوج قد احسن الاختيار.

و فجأة اخترق احد المحاربين الصفوف صائحا: ((سأذهب انا ايضا! لا بد من ان أذهب!)) و اخذ يجري خلف آمر الفوج. و كان هذا المحارب هو جندي المراسلة للكتيبة الثانية. و نظر آمر الفوج اليه و قد تأثر بذلك فوافق على هذا الاستثناء. و بعد لحظة قال: ((اذهب!)) و مسح جندي المراسلة الدموع من عينيه و انطلق يعد و ليلحق بفرقة العبور.

تسلح الرجال الثمانية عشرة (بما فيهم آمر الفوج) و حمل كل واحد معه سيفا عريضا، و مدفع تومي، و مسدس، و ست قنابل يدوية، و بعض معدات المعارك. و انقسموا الى فريقين. قاد احد الفريقين شيونغ شانغ يننغ قائد الكتيبة الثانية و كان عليه ان يعبر اولا.

كانت مياه نهر تاتو تهدر و تندفع في عنف. و خلال منظاري المقرب اخذت امعن النظر الى رجال العدو على الشاطىء الآخر. كان يبدو عليهم الهدوء.

جاءت اللحظة الرهيبة. قفز شيونغ شانغ ليغ و رجاله – و كانوا جميعا ثمانية – الى القارب.

((يا رفاق ان ارواح المائة الف جندي من الجيش الأحمر تتوقف عليكم. اعبروا بعزم و ثبات، و اقضوا على العدو!))

و بارح القارب الشاطىء وسط الهتافات.

و كان من الواضح أن العدو قد نفذ صبره، فاطلق نيرانه على القارب .. ''اقذفوهم!''

و انفتحت مدفعيتنا. و صوَّبَ تشاو تشانغ تشنغ المدفعي الساحر مدفعه في الاتجاه. ((بوم ... بوم!)) و تطايرت استحكامات العدو الى عنان السماء. و نطقت بنادقنا مع رشاشاتنا. و اخذ الجنود في حدة اكثر من زملائهم الذين يعبرون، يطلقون نيرانهم الساخنة. و انهمرت القنابل فوق استحكامات العدو و مسحت نيران

الرشاشات الشاطىء المقابل. و اخذ الرجال في القارب يدفعون بمجاديفهم الى الماء في حماس بالغ.

تقدم القارب، تتقاذفه الامواج الجياشة. و طلقات الرصاص تستقر حوله ناثرة رشاش الماء. و على الشاطىء تسمرت اعين الرجال على ذلك الفريق الباسل. و فجأة سقطت قذيفة بجوار القارب، محدثة موجة كبيرة هزته بعنف.

((آه، إنها النهاية!)) و قفز قلبي الى حلقي. و اخذ القارب يرتفع و ينخفض مع الامواج، ثم واصل سيره الطبيعي.

اخذ القارب يقترب شيئا فشيئا من الشاطىء المقابل. و الآن اصبح على بعد خمسة او ستة امتار فقط من الشاطىء. و وقف الجنود عند مقدمته على استعداد للقفز.

فجأة انحدر من قمة التل لغم و قنبلة يدوية و انفجروا في منتصف الطريق محدثين دويا هائلا. و انبعث منهما غطاء كبير من دخان أبيض. و يبدو ان العدو كان جادا في القيام بهجوم. نظرت خلال منظاري المُقرِّب. و كما توقعت تماما، رأيت جنود العدو يهجمون من ناحية المزرعة. و كان عددهم على الأقل مائتين، امام قوتنا القليلة. و كان على فريقنا الذي عبر النهر ان يحارب تحت ظروف طاغية و النهر الى خلفه. و انقبض قلبي.

و أمرت جنود المدفعية ((إضربوا!)) و تبع هذا صوتان مدويان. و انطلقت قذائف مدفع المورتر يصوبها تشاو تشانغ تشنغ فتنفجر مباشرة وسط العدو. ثم دوت طلقات مدافع الرشاشات الثقيلة.

((هيا؛ اضربوهم بقوة!))

و انبعثت صيحات من على المنحدر. و تبعثر رجال العدو في هلع و فزع، هاربين بارواحهم.

و صحت: ((اضربوا، اضربوا!))

و أمطرناهم بسيل من القنابل. أمّا ابطالنا الذين وصلوا الى الشاطىء فقد اندفعوا الى الامام، مطلقين نيران أسلحتهم الخفيفة و الثقيلة. و تقهقر العدو و احتل رجالنا اعمال التحصينات عند القارب. و لكن العدو لم يزل حولهم. عاد القارب الينا بسرعة. و نزل الرجال الثمانية الآخرون بقيادة أمر الفوج و انطلقوا يعبرون.

سمعت آمر الفوج يقول لنفسه: ((لنتقدم بكل سرعة ممكنة، حتى نعزز رفاقنا الذين سبقونا!))

اندفع القارب بسرعة نحو الشاطىء الآخر. و كان العدو على التل يحاول ان ينظم مدفعيتيه كلها ليدمر الفريق الثاني. فاطلق نيرانه في تهوّر نحو منتصف النهر.

و اخذ القارب الصغير يتسلق الموجة تلو الموجة، و يزيغ عن أمطار من الطلقات اثر أمطار أخرى.

و عندما اقترب من الشاطىء، اكتنفه وابل من طلقات المدافع الرشاشة. و تطلعت خلال منظاري المقرب، فرأيت احد الجنود يمسك بذراعه.

((ما باله؟)) لم يكن لديَّ وقت لأفكر. اندفع القارب عدة امتار الى الامام ((بوم..... !)) و ارتطم القارب بصخرة كبيرة و شحط في الارض.

((هذا سيء للغاية!)) و نظرت في اتجاه النهر. فرأيت الرجال و قد تشبثوا بالصخرة. و كان الماء يندفع و يزيد تحت القارب الصغير الذي كان يبدو على وشك الانقلاب. فاذا كان قد انسحب حتى التيار، لتَحَطَّم بالتأكيد.

كنت متوترا لدرجة اني شعرت بقلبي يكاد ينفجر.

قفز من القارب اربعة رجال. و خاضوا في الماء، و اخذوا يسحبون القارب بكل قوة. أمّا الأربعة الآخرون فقد استمروا يجدفون بعزم و جهد الى ان ارتفع اسفله من على الأرض، و رويدا رويدا بدأ يتحرك الى الامام. و الطلقات النارية تئز من

حوله. و مَرَّ الوقت دقيقة بدقيقة، و بعد نصف ساعة استطاع القارب ان يقطع نصف الطريق فقط. و مرَّت ساعة كاملة قبل ان يصل الى الشاطىء. و تنفست الصعداء.

و هناك على التل نشب صراع بين مدفعيتنا و مدفعية الأعداء. و القى الأعداء وابلا من القنابل اليدوية و بدأوا هجومهم على صوت النفير.

امرت جنود المدفعية ان يُبقوا العدو مكانه ((استمروا في الضرب!)) و تساقط مطر من القنابل و طلقات المدافع الرشاشة على الشاطىء الآخر. و اطلق الهدافة مدافعهم مصوبين بعناية نحو العدو. و اخيرا لاذ جنود الأعداء بالفرار.

و التأم فريقا الابطال الذين عبروا النهر – الثمانية عشر كلهم – و اندفعوا نحو العدو قاذفين قنابلهم اليدوية، مطلقين مدافع التومي، ملوحين بسيوفهم و اخذ العدو يجري يائسا بعد هزيمته المنكرة الى خلف التل. و اصبحت الضفة الشمالية تحت السيطرة الكاملة لجنودنا الذين عبروا النهر.

و بعد قليل عاد القارب الى الضفة الجنوبية. و في هذه المرة اصطحبت معي عددا من جنود المدفعية الثقيلة لنعزز الدفاع عن الموقع. بدأ الظلام يخيم. و عَبَرَت النهر قوات و قوات من الجيش الأحمر في أمان. و بمطاردتنا للعدو أستطعنا ان نأسر قاربين آخرين في المناطق السفلى. و كان لهما الفضل في التعجيل بعبور قواتنا. و في ضحى اليوم التالي، كان الفوج كله على الضفة المقابلة. و كان في عبور الفوج الاول للجيش الأحمر نهر تاتو تأييدا فعالا لمسيرتنا في السيطرة على جسر لوتنغ. و لسوف يُسَجَّل انتصار الابطال الثمانية عشرة، مع كل الاعمال المجيدة الاخرى في تاريخ الثورة، و سنذكره الى الأبد.

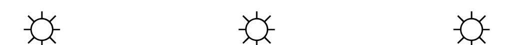
القتال عند جسر لو تنغ

يانغ تشنغ وو ((جنرال))

في أيار ١٩٣٥، و أثناء المسيرة الكبرى وصل الجيش الأحمر شاطىء نهر تاتو على الحدود بين مقاطعتي سيتشوان و سيكانغ. و في الثاني و العشرين، استطاع اللواء الأول الأحمر أن يكلل عبوره بالنجاح عند أنشونتشانغ، كان التيار سريعا جدا و لا يسمح ببناء جسر هناك، كانت ثلاثة قوارب صغيرة فقط تُستَخدَم للعبور. و كان الذهاب و الاياب لكل قارب يحتاج الى وقت طويل و عبور آلاف من الرجال يلزم أياما طوالا.

أمر جيانغ كاي شيك جيوشه بقيادة ليو ون خوى و يانغ سن بسد الطريق أمام عبورنا، و الذين تحت قيادة شو يه يويه و تشو خون يوان أن يهاجمونا من المؤخرة. و قبل قرن من الزمان، أبادت جيوش المانشو شيه تا كاي الجنرال المشهور لثورة التايبنغ و جيشه عند أنشونتشانغ، و كان جيانغ كاي شيك يحلم بأن يلقي بجيوشنا الى نفس المصير عند ذلك الجسر. كان كل الشعب الصيني قلقا. هل سيلقى الجيش الأحمر نفس مصير شيه تا كاي؟ هل ستعيد هذه المأساة التاريخية نفسها؟

و لكي يتم عبورنا بسرعة، و تحطيمنا لحصار العدو، كان من الضروري الاستيلاء على جسر لو تنغ في الحال. و كلف الجنرال لين بياو طليعة الفوج الأحمر الرابع لجيش اليسار للطريق بأن يقوم بهذا العمل. و واصلت الفرقة الأولى الحمراء تحت قيادة رئيس أركان الحرب ليو بو تشنغ و القمسار السياسي نيه يونغ تشن، العبور عند أنشونتشانغ و السفر الى الشمال على طول الشاطىء الشرقي للنهر لتدعيم الفوج الرابع من الجانب الآخر لجسر لو تنغ.



في صباح الثالث و العشرين قمنا مبكرين و اتجهت أنا مع لوائنا من أنشونتشانغ سائرين بمحاذاة الشاطىء الغربي الى ناحية الجسر، الذي يبعد مسافة ٣٢٠ لي تقريبا و قد أعطيت لنا ثلاثة أيام للوصول الى هناك. و كان الطريق حول الجبال ملتويا كأمعاء الغنم، كله مرتفعات و منخفضات. الى اليسار كان سفح الجبل يعلو حتى السحاب في استقامة عمودية و كأنه قد قُطِعَ بسكين. و على منحدراته العالية ثلوج لا تذوب طول العام. منظره يبهر الأبصار و يبعث الى النفس بقشعريرة قارصة. و الى اليمين، و على انخفاض عشرات الأمتار، تتدافع أمواج النهر بأطرافها البيضاء. و كانت أي خطوة ليست في مكانها تجعل الانسان من الذاهبين. و لكن لم يكن بيننا من يخاف الخطر. كانت هناك فكرة واحدة فقط في ذهن كل واحد: أسرعوا، استولوا على جسر لو تنغ.

و بعد مسيرة ٣٠ لي تقريبا، بدأت قوات العدو المرابطة على الجانب الآخر من النهر تطلق النار علينا. و لتفادي ما يمكننا من الخسائر، قطعنا دورة تقرب من ١٢ لي بين الجبال. و استهلكت هذه العملية وقتا كبيرا. و بعد مسيرة مسافة ٦٠ لي وجدنا أنفسنا نواجه جبلا ضخما. و فجأة حدث اشتباك بين كتيبة طليعتنا و كتيبة للعدو، فانقض عليهم رجالنا كالنمور. و بعد التحام عنيف قصير أجهزوا على كتيبة العدو.

كان ارتفاع الجبل حوالي ١٢ لي. و على الجانب الآخر مجرى ماء غير عريض و لكنه شديد العمق. حطم العدو الجسر الذي كان فوقه، و كان الخوض مستحيلا. فكسرنا بعض الأشجار و عبرنا عليها.

سرنا في خطوات فتية فرحين بانتصارنا الأول. و فجأة تناثرت النيران أمامنا. و جاء أحد كشافينا مسرعا ليخبرنا: ((إن هناك ممرا جبليا في مواجهتنا على اليسار، ترابط به وحدة من الجيش العدو تقارب في عددها الفوج. و سوف تعرقل تقدمنا.))

و في الحال، و بالاشتراك مع آمر اللواء تقدمت مع بضع رجال بسرعة لاستكشاف المناطق المجهولة. كانت الجبال تعلو في صخور عمودية. و لا يوجد إلا

ممر ضيق بينها يتسلق في حدة كأنه سلم صاعد الى السماء. و لو حاولت النظر على طول الطريق الى أعلى فان قبعتك ستسقط. و على قمم الجبال، و على رأس الممر بنيت القلاع.

كان النهر على يميننا، لذلك لم يكن باستطاعتنا أن نتحول عن هذا الاتجاه. و المرتفعات التي في اتجاهنا مباشرة تبدو كشيء لا يقهر. و الى اليسار سيف صخري تتناثر عليه الشجيرات و الأشواك. و أعلى السيف، يستمر الجبل الشاهق في الارتفاع.

و بَعد استكشافات دقيقة، قررنا أن نرسل مجموعة لتصعد ناحية اليسار و تحيط بالمكان و تهاجم العدو من المؤخرة و تأخذ الممر من الخلف. و في أثناء تسلق احدى الكتائب من الطرف اليساري، كان الفوج الثالث يتظاهر بالقيام بهجوم مباشر. استعمل العدو أسلحته بشكل هائل، أما مدافعه السريعة الطلقات فقد سددت طلقاتها في احكام مغلقة فم الممر فلم يكن ممكنا حتى لنحلة أن تطير داخله.

و بعد أقل من ساعة سمعنا طلقات آتية من مؤخرة العدو. و في هذا الوقت هجم الفوج الثالث في همة و أخرج العدو من استحكاماته. فتعقبناهم بلا رحمة، و أبدنا منهم ثلاث كتائب عند أسفل الصخرة. و أسرنا آمر كتيبة و آمر فوج و أكثر من مائتي أسير.

☼ ☼ ☼

في اليوم التالي تسلمنا أمرا هذا نصه: ((ان أمام جيش اليسار للطريق من الوقت حتى الخامس و العشرين ليستولي على جسر لو تنغ. يجب عليكم أن تزحفوا بأقصى سرعة و تعملوا في أقصر وقت ممكن لتتموا هذه المهمة الجليلة. نحن واثقون من أنكم أهل لها. نستعد لتهنئتكم بالنصر.)) و تحت هذا كان توقيع القائد لين بياو.

و عندما انتهينا من قراءة الأمر تبادلت و آمر اللواء وانغ النظرات. و في صوت واحد قلنا: ((مهمة جليلة و لكنها قاسية جدا!))

الخامس و العشرون كان هو اليوم التالي، و لا زال أمامنا ٢٤٠ لي حتى نصل الى جسر لو تنغ. و هذا يستلزم أن نقطع مسيرة يومين في يوم واحد. و لم يكن أحد يتوقع أن موعدنا سيتغير بهذه السرعة و يصبح أمرا عاجلا. ٢٤٠ لي في يوم واحد، انها لمسيرة جبارة، نمشيها على أقدامنا على طول الطريق! و أكثر من ذلك أننا سنحارب لنفتح لنا طريقا وسط مقاومة العدو القوية.

و لكن الأوامر هي الأوامر. كان عملا مجيدا و بكل تأكيد سنؤديه. و لم نكن نستطيع أن نؤخر أو نقدم دقيقة واحدة. ان الوقت هو كل شيء الآن. و في الأصل كان يوجد هناك لواءان يحرسان الجسر. و لكن الآن نستطيع أن نرى بأعيننا لواءين آخرين على الناحية الأخرى للنهر يسرعان ليعززا قوة اللواءين. و بقيت قوة من اللواءين لتحاصر فرقتنا الأولى الحمراء، و لكن القوة الرئيسية كانت في اثرنا نحو الجسر. و لو سبقنا في الوصول، لكان هناك أمل في النصر. و إلا فسيكون من الصعب، ان لم يكن مستحيلا، على الجيش الأحمر أن يعبر عند لو تنغ.

لم نستطع أن نتوقف فالوقت كان ثمينا جدا. و في أثناء سيرنا عقدنا اجتماعا بين الضباط الحربيين و السياسيين لمناقشة ما يجب علينا أن نعمله. بدأنا بإصدار عدة نداءات لتجميع القوى: ((اللواء الرابع الأحمر له سجل مشرف في المعارك. يجب أن ننتهي من مهمتنا و نحافظ على مجدنا!)) ((يجب أن نقتدي باللواء الأول الأحمر الذي احتل أنشونتشانغ. يجب أن نباريهم و نأخذ جسر لو تنغ!)) ((ان مهمتنا جليلة و لكنها صعبة جدا. و مع ذلك نستطيع أن نجتاز الامتحان!)) و حددنا السادسة صباح اليوم التالي كساعة الصفر للوصول الى هدفنا. و بعد الاجتماع عاد الضباط الى كتائبهم ليجمعوا رجالهم.

و اذ تم ذلك لاح لنا جبل النمر المتوحش.

و لكي نتسلق جبل النمر المتوحش يجب أن نقطع مسافة ٤٠ لي ثم ننزل نفس هذه المسافة. كانت عملية خطرة، فنهر تاتو الى اليمين، و صخور عالية الى اليسار، و

الممر عبارة عن شعب ملتو. و الناس يقولون انه رقبة الطريق بين أنشونتشانغ و جسر لو تنغ، و لم يكن في هذا مبالغة.

كان فوج العدو يمسك بالطريق الى القمة. و كان الضباب في أكثف أوقاته، فلا تستطيع أن تتبين المرئيات على بعد خمس خطوات منك. استطاعوا أن يلحظونا و نحن نقترب من القمة و لكن بسبب الضباب لم يستطيعوا رؤيتنا بوضوح، فقدروا فقط أن يطلقوا النار في جنون في اتجاهنا العام. و لكي نستفيد من هذه المعونة التي اسدتها لنا الطبيعة، أمرنا رجالنا ألا يطلقوا نيرانهم. و لمّا اقتربنا منهم هجمنا عليهم بالقنابل اليدوية و الحراب. فكانت أصواتهم تُسمَع و هم يتشتتون في الظلام مختلطة بأصوات الفرح التي يطلقها رجالنا. دُعِرَ العدو و فر هاربا. و لكن فوج الطليعة لاحقه على طول الطريق الى أسفل على الناحية الأخرى من الجبل، و استولى على قدر معتبر من الغنائم – لا من عتاد البنادق فحسب بل كان بينها دقيق أبيض أيضا! و عندما بلغت المطاردة قرية موهسيميان انقض الفوج على فوج العدو و على وحدة مركز قيادة الفرقة و كانتا ترابطان هناك. و انغمد رمح انتصاراتنا في قلب العدو و تشتت العدو مرة أخرى. و عندئذ احتللنا موهسيميان.

و دمر العدو التعيس جسرا على قناة في شرق القرية واضعا عوائق جديدة في طريق مسيرتنا. و بعد ساعتين استطعنا أن نصلح الجسر و واصلنا تقدمنا مسافة ٥٠ لي بدون توقف. وصلنا مزرعة صغيرة لحوالي عشر عائلات، على حافة نهر تاتو، و كانت الساعة قد قاربت السابعة مساء. و كان لا يزال أمامنا ١١٠ لي لنصل الى لو تنغ.

ان الصعاب لا تأتي فرادى، و لا أحد يستطيع أن يتحكم في الطقس. فقد انهمر مطر غزير فجأة يصحبه رعد و برق. و كانت السماء سوداء حتى لا يستطيع المرء أن يرى أصابع يديه. و لم يأكل رجالنا طول اليوم، فكانوا يقاسون الجوع. كنا نسير في الظلام على أرض زلقة و الدواب التي تحمل طعامنا و مؤونتنا لا تسعفنا. و عندما وصلنا الى قاعدة جبل النمر المتوحش رأينا العدو على الناحية الأخرى للنهر

يلاحقنا خطوة خطوة. و لو أنهم لحقوا بنا عند الجسر لكان كل شيء قد انتهى. كان يجب علينا أن نجد مخرجا في الحال.

كانت الصعاب كلما ازدادت تعقيدا، ازداد واجبنا في تقوية عملنا السياسي بين الرجال. أصدرنا نداءا لكل الشيوعيين، و لشباب المعسكرات و الأنصار الآخرين وضّحنا فيه بصراحة الصعاب التي تكمن أمامنا، و إصرارنا على الوصول الى لو تنغ في السادسة من صباح اليوم التالي. أصدرنا أمرا لكل رجل بأن يصنع لنفسه عصا، و الذي لا يستطيع المشي يمكنه أن يسير متكئا عليها. و أولئك الذين لا يستطيعون السير و هم معتمدون على عصيهم فعليهم أن يزحفوا – و لكن عليهم أيضا أن يصلوا الى الهدف في الميعاد المحدد! لم يكن لدينا وقت لنطهو طعامنا. فأصدرنا التعليمات بأن يأكل كل منا نصيبه من الرز بدون طهي – و يشرب ماءا غير مغلي.

انتشر النداء بين الجنود كالنار المندلعة، و ألهب روحهم الحربية. و كان يبدو من منظرهم أن لا شيء يمكن أن يرجعهم الى الوراء حتى و لو كان جبلا من سكاكين. و لكن كيف نسير ١١٠ لي في طريق موحلة زلقة و في ظلمة حالكة؟ كان هذا السؤال يجثم على قلبي كحجر وزنه ألف رطل.

و فجأة ظهرت بقع من الضوء في أغوار الجبل على الناحية الأخرى من النهر و تغيرت في لحظة الى خيوط من الأشعة. كان العدو يجاهد في الزحف على أضواء المشاعل. و قد أعطانا هذا فكرة و فكرت: اننا سنعمل بالمثل، فتناقشت مع رئيس اللواء و رئيس أركان الحرب، و سكرتير الحزب في الحال. و لكن كانت هناك مشكلة و هي: كان العدو في الناحية المقابلة من النهر. و لنفرض أنهم استطاعوا أن يكشفوا أمرنا، و طلبوا منا اثبات شخصياتنا؟ اذا عرفوا حقيقتنا و اشتبكوا معنا في معركة فكيف سنصل الى الجسر في الوقت المحدد؟

((عندما تصبح الأمور أكثر تعقيدا، اضرب بجرأة.)) و قررنا أن ننتحل العلامات المميزة لأفواج العدو الثلاثة التي قضينا عليها أمس و اليوم. اشترينا كل أسوار

الخيزران من الأهالي في المزرعة، و ربطنا الخيزران سويا لنصنع منه مشاعل و أعطينا كل رجل مشعلا. و أثناء الزحف أوقدت كل مجموعة مشعلا – و كان يجب علينا ألا نبدد تلك المشاعل. و علينا أن نسير ١٠ لي على الأقل في الساعة – نبهنا على نافخي الأبواق للاستعداد لرد الاشارات التي تعلمناها من المعدات التي أسرناها من العدو. كانت كل قوات العدو من أهل سيتشوان، فانتقينا بضعة رفاق من بين رجالنا، من أهل سيتشوان في الأصل، و من بين الأسرى اخترنا مجموعة من أهل سيتشوان أيضا حتى يستطيعوا أن يردوا على أي أسئلة.

و للسرعة تركنا دوابنا كلها و جميع أمتعتنا و أسلحتنا الثقيلة – و من بينها حصاني و حصان آمر اللواء – في رعاية سرية مع تعليمات للحاق بنا في أسرع وقت ممكن.

كان جرح ساقي لم يلتئم بعد، و كان ذلك يسبب لي بعض المتاعب في السير. فرجاني الرفاق – و خاصة آمر اللواء – أن أمتطي حصانا. و لكن في الوقت الذي يجب أن يكون كل الضباط قدوة، فكيف أركب؟ و قلت في مراهنة: ((سنسير سويا أيها الرفاق و لنرى من الذي سيسير أسرع. و من الذي سيصل الى جسر لو تنغ أولا!))

و في غمرة الفرح حمل الرجال مشاعلهم عاليا و أسرعوا الخطى الى الأمام.

صبغت مشاعلنا و مشاعل العدو التي تواجهنا على الناحية الأخرى من النهر، مياه نهر تاتو بلون قرمزي. و على بعد ظهرت خطوط المشاعل كتنينين شرسين يتلويان و على أصوات الأمواج سمعنا نغمة حادة من أحد بواقي العدو، تبعها نداء بصوت واهن: ((من أي حدة أنتم؟)) و بدأ العدو يتصل بنا.

عندئذ نفخ بواقونا بالرد حسب أنظمة العدو، و أنطلق الرفاق من أهالي سيتشوان و أسرانا من العدو ردهم كمجموعة. و الخنازير الأغبياء على الشط الآخر لم يفطنوا الى أن الذي يسير في محاذاتهم هو الجيش الأحمر المجيد الذي كانوا يحلمون

ليل نهار ببادته. ظلوا سائرين في محاذاتنا نحو ٣٠ لي. و في حوالي منتصف الليل استد المطر و اختفت الأنوار على الشاطىء الآخر. اعتقدنا أنهم لا بد قد وجدوا السير متعبا فآثروا أن يعسكروا. انتشرت الأنباء بسرعة بين اللواء. فعمت الفرحة الزملاء جميعا. و قالوا هذه هي فرصتنا. سيروا الى الأمام! سريعا! ...... و في طابور واحد تقدمنا الى الأمام بأسرع ما يمكننا.

استمر المطر ينهمر بلا رحمة، و انحدرت السيول الجارفة من أخاديد الجبل الى النهر. كان الممر المتعرج الذي يخترق جانب الجبل يحتاج صعوده من قبل الى مشقة كبيرة، أما الآن فقد جعله الماء زلقا كالزيت. و لم تعد عِصيّنا ذات نفع كبير. و زلة واحدة تجعل الانسان يستقر على رأسه. و كنا نتزلق مرة كل ثلاث خطوات، و نقع على الأرض كل خمس خطوات. و في الحقيقة كنا نتدحرج على الأرض أكثر من أن نسير.

و حتى تحت هذه الظروف، فقد كان الرجال يقفون بين الحين و الآخر. و اذا ما توقف جندي عن السير دفعه الزميل الذي خلفه و صرخ: ((استمر في السير، لقد سبقوك!)) عندئذ يفيق الجندي من غفوته و يجري ليلحق بزملائه. و أخيرا فك الرجال أربطة سيقانهم و ربطوا بها بعضهم البعض في شريط طويل، كل واحد يجر الآخر.

و بعد أن سرنا بهذه الطريقة طوال الليل، نجحنا في الوصول الى جسر لو تنغ بعد الساعة السادسة صباحا بقليل و استولينا على طرفه الغربي و الممرات المؤدية اليه. و في خلال ٢٤ ساعة سرنا ٢٤٠ لي الى جانب القتال و اصلاح الجسور المحطمة، انه لعمل باهر لأرجلنا المجنحة!

☼ ☼ ☼

احتللنا بضعة مبان عند الطرف الغربي للجسر، و هناك جفف الرجال ملابسهم، و طهوا بعض الطعام، و استراحوا. أما آمر اللواء وانغ و أنا فقد ذهبنا مع ضباط الفوج و الكتيبة لنستكشف المواقع.

كان موقع جسر لو تنغ في غاية الخطورة. و حتى نحن الذين واجهنا أعنف المصاعب قد ارتبكنا لهذا الأمر. الى أسفل، تنحدر المياه الحمراء كالشلالات من مضايق الجبل الى الحوض الأعلى للنهر مندفعة الى الصخور القبيحة التي تبرز من حوض النهر و ترسل الزبد الأبيض عاليا في الهواء. و كان زئير الأمواج المتدافعة يصم الآذان، و لا تقوى سمكة واحدة على مصارعتها. و كان خوض النهر أو عبوره بالزوارق ضربا من العبث. لقد كان الجسر هو الوسيلة الوحيدة للعبور.

قمنا بالكشف عليه. لم يكن مصنوعا من الأحجار و الخشب و لكن من سلاسل حديدية – عددها ثلاث عشرة سلسلة، حلقاتها كبيرة و سميكة جدا مثل طاسة الرز. و على كل جانب من الجسر سلسلتان بمثابة الدرابزين، و تسع سلاسل أخريات – تكون منها أرضية الجسر. و في الأصل كانت هناك ألواح من الخشب تمتد على السلاسل التسع و الجسر طرفاه معلقان الى الجبل من كل ناحية، يهتز كالأرجوحة على خطوات المارين. و الآن زالت ألواح الخشب فقد أخذها العدو الى مدينة لوتنغ. و لم يبق غير السلاسل السوداء المعلقة. و عند رأس الجسر نقش سطران من الشعر على قطعة من الرخام:

جبال شامخة تلامس جسر لو تنغ
ترتفع قممها ألف لي صوب السحب

و على الضفة الأخرى عبر النهر كانت تقع مدينة لو تنغ، نصفها بمحاذاة الشاطىء و النصف الآخر عند سفح جبل. محاطة بسور ارتفاعه سبعة أمتار و نصف، و المدينة تقع وراء الحافة الشرقية للجسر. فبعد أن تعبر الجسر يجب أن تدخل من البوابة الغربية. و ليس هناك طريق آخر. كان يحرس المدينة لوآن للعدو،

و قد بنى العدو تحصينات قوية على طول سفح الجبل. فتحت المدافع السريعة الطلقات الملاصقة للجسر نيرانها المستمرة و أصلتنا بوابل من قنابلها.

و صرخ الأعداء بنا هازئين منا و هم واثقون من أن موقعهم حصين لا يغلب: ((دعونا نراكم تطيرون الى هنا و سنسلمكم أسلحتنا كلها!))

ورَدَّ عليهم جنودنا: ((نحن لا نريد أسلحتكم. ان الجسر هو الذي نطلبه!))

أقمنا فوجا في احد المواقع ليضرب ببنادقه و مدافعه السريعة الطلقات أي امدادات للعدو تحاول أن تصل الى الطرف الشرقي من الجسر من ناحية الجنوب. و الى جانبنا تماما كان هناك ممر ضيق بين جانب الجبل و النهر ممكن أن يأتوا منه. ثم ذهبنا بين كتائبنا لنبدأ معركتنا الشاملة. اشد الحماس. و أعدَّت كل كتيبة قائمة بأسماء المتطوعين كفصيلة الهجوم و كانت كل واحدة تطلب أن يعطى رجال وحدتها مهمة القيام باحتلال الجسر.

و في الظهر عقدنا اجتماعا لكل الضباط في اللواء ليقرروا كيفية تكوين فصيلة الهجوم. و لم نكد نبدأ مناقشاتنا حتى انهالت قنابل العدو و أحدثت ثقبا كبيرا في سقف البناء الذي كنا نجتمع فيه. و انهمرت علينا شظايا القنابل و قطع الأسمنت. لم يتحرك واحد منا، و لكن أعيننا هي التي حملقت في غضب نحو الشاطىء الشرقي.

((ان العدو يحثنا على التقدم.)) ((يجب أن نتجه صوب الجسر مباشرة. دعونا نقرر أي كتيبة ستكون مسئولة عن دق اسفين في مواقع العدو.))

و عندئذ هب قائد الكتيبة الثانية للمشاة لياو تاو تشو واقفا كان رجلا قليل الكلام و لكنه الآن وجد نفسه مجبرا على ذلك، و قد ضَرَّجَ هذا المجهود وجهه الذي حرقته الشمس. و اهتز جسمه القوي القصير بانفعال و قال: ((ان الكتيبة الأولى قد شهد لها بأنها كتيبة مثالية عندما خضنا معركة نهر وو كيانغ. و نحن نريد أن نباريهم و نكسب لقب كتيبة الأبطال للاستيلاء على جسر لو تنغ.))

فقاطعه القائد الثائر للكتيبة الثالثة، و الكلمات تتناثر من فمه كطلقات المدفع: ((عليكم أن تعطوا مهمة الهجوم للكتيبة الثالثة. لقد أبلت الكتيبة الثالثة في كل معركة. و نحن نؤكد لكم قدرتنا على احتلال الجسر.)) كان يقف في صلابة و كأنه برج من حديد. ثم أضاف في توسل: ((اذا لم تتركوا لنا القيام بهذه المهمة فلن أستطيع أن أعود و أواجه رجالي.))

ثم أعقب ذلك مناقشات حامية، و ليس هناك من يرغب في التنازل عن تلك المهمة للآخر. و كان القرار الأخير للقادة. و تحدثنا في الأمر أنا و آمر اللواء وانغ، ثم وقف و أعلن أن الكتيبة الثانية هي التي ستقود الهجوم. ثم وقفت أنا و قلت:

((اذا كان القتال هو الذي تريدونه، فان هناك الكثير الذي سيأتي بعد ذلك و سيكون لكل منكم فرصته. ان الكتيبة الأولى هي التي قادت عند نهر وو، و في هذه المرة ستكون الكتيبة الثانية هي البادئة. و ستتكون فصيلة الهجوم من اثنين و عشرين رجلا شيوعيا و غيرهم من صغار الرجال الشجعان من الكتيبة الثانية، و سيكونون تحت قيادة القائد لياو. انها لتبدو فكرة صائبة. فماذا هو رأي الباقين؟))

كان الجواب تصفيقا حادا من كل الحضور. إلا آمر الكتيبة الثالثة الذي مازال متجهما. فقلت له مؤكدا: ((ان عمل الكتيبة الثالثة ليس بالهين، و ان عليك أن تتجه مباشرة خلف الكتيبة الثانية و تضع الألواح بين السلاسل، حتى يستطيع سائر الرجال أن يهجموا على المدينة.)) عند ذلك فقط شاعت الابتسامة العريضة على وجهه.

و أخيرا كلفت آمري الكتائب بأن يعطوا كل رجل رطلا من لحم الخنزير المملح استولينا عليه من احد الطغاة المحليين. ان الرجال بامكانهم أن يحاربوا بقوة و بطونهم ممتلئة. و بعد الاجتماع طلبتُ من سكرتير الحزب في اللواء أن يساعد فصيلة الهجوم من الكتيبة الثانية على أن تكون جاهزة.

بدأنا هجومنا في الساعة الرابعة بعد الظهر. و صوبناه أنا و آمر قيادة اللواء من الطرف الغربي للجسر. نفخ كل البواقين في أبواقهم في صوت واحد، نداء الهجوم. و هجمنا على العدو عند الشاطىء المقابل بكل أسلحتنا. و أحدثت الانفجارات و أصوات الرجال دويا في أنحاء الوادي.

زحف الأبطال الاثنان و العشرون تحت قيادة القائد لياو على سلاسل الجسر المتأرجحة، حاملين مدافع التومى، و السكاكين الكبيرة مربوطة الى ظهورهم و مع كل واحد اثنتا عشرة قنبلة يدوية مثبتة في أحزمتهم، مقتحمين قلب نيران العدو الحامية. و وراءهم جاء رجال الكتيبة الثالثة، كل منهم يحمل لوحا من الخشب، لكي يصلحوا جهاز الحركة. كانوا يحاربون و الى جانب ذلك يضعون الألواح الخشبية.

و عندما وصلت فصيلة الهجوم الى جانب الآخر، اندلع لهيب هائل الى عنان السماء خارج البوابة الغربية لمدينة لو تنغ. كان العدو يحاول أن يحاصرنا بالنيران لتهلكنا بين لهيبها. صبغت وهجت النيران نصف السماء باللون الأحمر، و انعكس في حدة حول الطرف الشرقي للجسر.

و أصبحت نتيجة المعركة كلها معلقة على شعرة. ترددت فصيلة الهجوم و هي تجابه نيران العدو عند بوابة المدينة. فصرخ الرجال الذين معي، و صرخ آمر اللواء: ((استمروا أيها الرفاق! اهجموا! ان النصر يعتمد عليكم! لا تأبهوا بالنيران، اهجموا! ان العدو يتصدَّع.))

ألهب صراخنا حماسهم، و على صوت النفير غاص الاثنان و العشرون رجلا في قلب اللهب. اشتعلت النيران في قبعة القائد لياو فألقى بها أرضا و استمر يقاتل. كَوَت النيران حواجبهم و شعر رؤوسهم، و لكن الرجال استمروا يقاتلون من وراء قائدهم بين لهيب النيران و سحب الدخان فاتحين طريقهم الى المدينة. حاربوا في الطريق و لكن العدو جاء بكامل قوته لكي يضربهم ضربة قاضية و يأتي على الفصيلة التي تقود الهجوم. حارب الرجال الاثنان و العشرون حتى آخر طلقة منهم. أصبحت الحالة حرجة. و بدا كل شيء و كأنه انتهى.

و لكن في هذه اللحظة بدأت الكتيبة الثالثة هجومها لكي تنقذهم، ثم تبعناهم أنا و آمر اللواء وانغ و أسرعنا عبر الجسر مع الفصيلة الثانية و دخلنا المدينة أيضا.

و في ساعتين حطمنا معظم لوائي العدو. أما الآخرون فقد انهزموا و تفرقوا. و عند الغسق كنا قد استولينا على مدينة لو تنغ كلها و أصبحت لنا السيطرة التامة على الجسر.

أما الآن فان واجبنا الرئيسي أن نكون يقظين ضد أي هجوم مفاجيء و أن نحافظ على الجسر بكل ما لدينا من قوة. كنا نعرف أن هناك ألوية للعدو بالقرب من تاتشين لو و لذلك أرسلنا فوجا في هذا الاتجاه ليقف هناك كحرس. و أرسلنا فوجا آخر نحو الجنوب على طول النهر لكي يمسك بلوائين من جنود العدو شوهدا في اليوم السابق يسرعان في اتجاه الجسر و حوالي الساعة العاشرة مساء سمعنا مقدمة الفوج تطلق النيران. فظننا أنهم التحموا مع العدو، لذلك أخذنا نستعد لمعركة مريرة. تركز فوجنا في موقعه ثم ارسلت فصيلة هجوم رجعت بأسير مجروح. و لكننا اكتشفنا أنه رفيق من اللواء الثالث من الفرقة الحمراء الأولى. و عند ذلك فقط عرفنا أن الفرقة الأولى قد وصلت. كنا في حالة متوترة في انتظار نضال قاس. و لكن الآن استراح كل منا و أصبح في غاية السعادة.

اشتبكت الفرقة الحمراء الأولى مع جيش العدو على بعد ٦٠ لي من لو تنغ. و لمّا خاف العدو من أن يصبح محاصرا بين هجوم من الشمال و الجنوب، فقد فرَّ في هلع.

و في الحال استدعينا الرجال لمقابلة رئيس أركان الحرب ليو بو تشنغ و القمسار السياسي نيه يونغ تشن، اللذين كانا يتقدمان من ناحية الخلف، للذهاب بهما الى المدينة. و كان اللقاء سعيدا جدا.

و مع أن الساعة كانت تشير الى الثانية صباحا إلا أن القائدين أصرا على أن يعاينا الجسر. حملت مصباحا في يدي و صحبتهما الى هناك. كان الجنرال ليو

يفحص كل أجزاء الجسر بعناية كما لو كان يريد أن يحفظه غيبا و في منتصف الطريق و نحن عائدون، توقف و انحنى ليشاهد مياه نهر التاتو الثائرة. و ضغط بقدمه على ألواح الخشب و قال في همس: ((يا جسر لو تنغ، لقد أرقنا دماء كثيرة و بذلنا جهودا مضنية لنحصل عليك، و في النهاية تم لنا ذلك!))

و في اليوم التالي، سار الجنرال لين بياو مع قواتنا الرئيسية. و كانت تحيته الحارة تشجيعا عظيما لنا. و بعد ذلك وصل الرئيس ماو و القائد العام تشو ته و بقية أعضاء الهيئات الأخرى. و مشت آلاف من القوات على الجسر. لقد غزونا الحاجز المنيع لنهر تاتو.

أمّا الأبطال الاثنان و العشرون الذين قاموا بالهجوم الأول فقد قدَّرَت اللجنة العسكرية أعمالهم أيما تقديرا. و سجلت بطولاتهم النادرة صفحة مجيدة في تاريخنا العسكري.

عبر الجبال الثلجية

تشيانغ كوو خوا ((كولونيل))

في صيف ١٩٣٥، احتل جيش الجبهة الأحمر الاول محافظتي تيان تشوان و لوشان على حدود سيتشوان – سيكانغ. و استراحة لمدة ثلاثة ايام في تيان تشوان، و خلال تلك الايام كان علينا تحضير الطعام المؤقت و المواد المقاومة للبرد قبل ان نعبر جبل تشياتشين، احد جبال السلسلة الثلجية العظيمة التي ترتفع امامنا.

أمِرت بأن اتبع تشو لي تشبخ رئيس قسم المؤن التابع لفرق الجيش الأحمر الثالث. كنت مريضا عندما عبرت القوات نهر تاتو. و اشتد بي المرض عندما وصلت تيان تشوان و أصِبت بالحمى و الدوار، و الاسهال و القيء، و لم اذق لقمة من الطعام لعدة ايام. و لكني لمّا رأيت البلاغات المستعجلة، قاومتُ المرض و اصررت على العمل.

و في اثناء العودة بعد الظهيرة، و بعد ان أرسَلتُ الى مختلف الوحدات اشارة الاستعداد للزحف. شعرت بالبرد ينتابني بين فترة و اخرى و احتقان مصحوب بارتفاع في درجة الحرارة. كان رأس ثقيلا جدا و لم اعد قادرا على حمله فارتميت على ذلك اللوح الخشبي الذي استعمله كسرير، و أنا لا أشعر بأي شيء حولي. و بعد فترة، شعرت بيد ساخنة على جبهتي و سمعت احدا يناديني: ((تشانغ كوو خوا، تشانغ كوو خوا ....)) فتحت عيني لأرى رئيس قسم المؤن يجلس على سريري و ينظر اليَّ في قلق و في يده وعاء. ثم قال لي في رفق و هو ينحني عليَّ: ((كل هذا، انه قليل من دقيق الذرة اعدها لك الرفاق، تأثرت جدا و سالت الدموع من عيني، و ناضلت لكي اجلس، مبعدا الوعاء عني: ((لا استطيع ان آكل، انا لا اريد ان آكل. يا رئيس قسم المؤن انا اعمل تحت امرك و لكني لم اؤدي عملي.))

فأبتسم رئيسي و قال: ((لماذا تقول مثل هذا الكلام؟ عندما كنت سليما كنت تقوم برعايتي. و الآن لقد مرضت فيجب على ان اقوم برعايتك. و يجب ان تأكل لأننا سنواصل الزحف و نتسلق جبال تشياتشين، لننضم الى قوات جيش الجبهة الرابعة.

أكلت دقيق الذرة و دموع الامتنان تملأ عينيي، و شعرت بالراحة و الأمل الكبير. ثم طيب قسم المؤن خاطري و تركني انام و انصرف.

و في الليل، كنت قلقا متحيرا، و نصف نائم عندما سمعت رئيسي و معه رئيس الحسابات يتناقشان فيما اذا كانوا سيأخذون الرفاق المرضى معهم و كيفية ترتيب ذلك الأمر. ذكر اسمي، و شعرت بقلبي يرتعش – هل سأكون من بينهم ثم فكرت في نفسي. لقد اشتركت في الجيش الأحمر و أنا في الخامسة عشر من عمري و نشأت تحت رعاية الحزب. و منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه الجيش علمني الحزب ان الصعاب مهما عظمت فان الشيوعي يجب ان يتغلب عليها. فهل سيغلبني هذا المرض؟ طبعا لا! لن ابقى هنا. و ما دمت اتنفس فاذهب مع الجيش.

و لم أنم طوال هذه الليلة، كنت اقلب الامور على كل وجوهها.

و في الصباح التالي، جاءني رئيس الهيئة قبل ان تتحرك القوات. و نظر إليَّ في عطف و سألني عمّا اذا كنت اشعر بتحسن. فتدافعت اليه قائلا: ((رئيس قسم المؤن، يجب ألا تتركني هنا. يجب ان اذهب مع الجيش.))

و بدأ يقنعني: ((الآن انظر، انك لم تشف بعد، و سيكون مرهقا لك ان تسير مع القوات. الأحسن لك ان تستريح. و تستطيع ان تلحق بنا بعد ذلك عندما تسترد صحتك.))

و عندما سمعت ذلك، اصبحت في غاية الانزعاج حتى تشبثت بملابسه قائلا: ((لن افترق ابدا عن الحزب. يجب ان اذهب مع الجيش و لو كان لي ان اموت فلأمت في الجيش.))

و لمّا رأى تصميمي على الذهاب لم يبد أي اعتراض بعد ذلك. بل ربت على رأسي و قال في حنان: ((حسنا، لقد اُجيبَ طلبك، و ستذهب مع الجيش. جهِّز حاجياتك و ضعها على ظهر بغلي. و اعطني بندقيتك و سأحملها لك.

سارت القوات، و أنا بينهم اسير متوكئا على عصا. و بعد ثلاثة ايام وصلنا جبال تشياتشين.

و في بكرة صباح اليوم التالي. نفخ البوق فتقدمت القوات نحو الجبل. كل رجل يمسك بعصاه و يتسلق الدرب الضيق المتعرج في ثبات. ظهرت الشمس. و نظرنا من القاعدة فرأينا قمة الجبل تلمع و القوات تتقدم كتنين يتلوى نحو السماء. في البداية كان الجو رطبا و الأرض مستوية و لم اجد صعوبة في السير. و بمرور الوقت ازدادت الحالة سوءا بالنسبة لي. فبعد ان قطعت شوطا عاودني الاسهال و كان عليَّ أن استريح. و بالتدريج بدأت أتأخّر، و لكني صككت على أسناني و تابعت التسلق حتى وصلت الى شجرة صنوبر كبيرة، فأحسست برأسي يدور و لم أستطع أن أتحرك خطوة واحدة. لذلك جلست لأستريح. فاذا بلي تشيو شنغ الحمّال الشاب و هو يحمل صندوقين علقهما على طرفي عصا وضعها على كتفه. و كنّا دائما نمزح سويا.

و لمّا رآني في هذه الحالة قال لي: ((كيف الحال الآن يا تشيانغ كوو خوا! دعنا نتنافس. تغلب على هذه الحالة! هيّا بنا الى الجانب الآخر من الجبل لنقابل جيش الجبهة الرابع.))

شعرت بمزيد من الارتباك. من الذي لا يرغب في السير! انهما قدماي اللعينتان! و حتى هذه اللحظة لا تريدان الحركة. ((هيا، تحرك)) و اخذت اشجع نفسي: ((يكفي ان امشي على مهل. فقد تقدم معظم الرفاق الى الامام.))

استجمعت كل قواي و ضغطت على عصاي و وقفت و لكن لكي اقع مرة اخرى في الحال. و نظرت امامي فوجدت ان كل ما سرته هو جزء طفيف جدا. و أسفاه

هل ستستمر الحال هكذا. و اصبحت في معضل عندما شاهدت السايس العجوز وانغ يقترب مني و هو يقود بغلا بني اللون. و من اول وهلة عرفت انه لرئيسي و قال لي العجوز وانغ: ((اركب عليه! ان هذا الجزء من الطريق مستو تماما.))

ترددت و لم اجبه و بصراحة كنت مشتاقا لركوب البغل. و لكن كيف اركبه؟ و أنا لا أحمل شيئا. ان رئيس قسم المؤن لا بد و أن يكون في غاية التعب و هو يحمل بندقيتي. و بدلا من أن أعتني به تركته يعتني بي. نظرت الى البغل ثم الى العجوز وانغ و مرَّت لحظة طويلة دون أن انبس كلمة واحدة.

و يبدو ان العجوز وانغ قد ادرك ما يجول بخاطري ((ايه، انت)) ثم قال و هو يحثني: ((لقد أحضرت البغل بناء على أمر رئيس قسم المؤن اركب حالا. و ستكون حالك احسن بعد أن نتسلق هذا الجبل. ان جيش الجبهة الرابعة ينتظرنا على الناحية الأخرى من الجبل و من المحتمل جدا أن يكون هناك مستشفى.))

و انهمرت دموعي. و ساعدني العجوز وانغ على ركوب البغل و واصلنا صعود الجبل.

و كنّا كلما تقدمنا في الصعود، ازداد الممر ضيقا، و ازداد السفج انحدارا و اصبح الهواء اقل كثافة. و صار الركوب خطرا، و لذلك ترجلت و امسكت بذيل البغل و واصلت النضال الى الامام. و على الممر بين الغابة البكر القاتمة، كان هناك بعض الزملاء المرضى مثلي و كانوا يتسلقون في صلابة، هم يتتبعون آثار اقدام الرفاق الذين امامهم.

في الساعة الحادية عشر صباحا وصلنا بعد مشقة كبيرة الى مسافة تبعد ٦ لي عن القمة. سمعنا صوت البوق يعلن عن وقت الراحة. فجلس الجميع الى جانب الممر بعضهم ذهب الى الاخدود ليشرب ماء. و البعض الآخر اخرج طعامه ليأكل. و ستكون معركتنا الأخيرة مع الجبال الثلجية بعد الأكل.

و مع ان هذا الجزء لم يكن طويلا، فان كل خطوة كانت تتطلب جهد كل جسمي. فترت حدة الاسهال عندي و لكني كنت ضعيفا جدا، كأنني لم اكل منذ زمن بعيد. و فجأة خفَّت كثافة الهواء عندما كنا على بعد ٢٠٠ متر من القمة، و اصبح التنفس صعبا. كان رأسي يدور و عيناي تخلط امامها المرئيات و صرت لا اقوى على الوقوف. و لكن حرت فيما افعل. و قلت لنفسي: ((ألست أهلا لهذه المهمة؟)) و لكن في الحال تذكرت: ((هل سأهزَم و قمة الجبل قد اصبحت على مرأى منّا؟ يجب ألا أسقط، لأن ذلك سيكون نهاية كل شيء.))

ضغطت على نفسي بكل قوتي. كنت اناضل بلا امل، و لحسن حظي، رآني في هذه اللحظة بعض الرفاق من فرقة الاشارة فجاءوا و ساعدوني. و في ذلك الوقت سمعنا صوت سقوط من الخلف صحبته صرخة. نظرت خلفي فرأيت احد الحمالين قد سقط بعيدا، و تناثرت الأشياء التي كان يحملها، دققت النظر و عرفت انه الرفيق الشاب لي تشيو شنغ، الذي كان يمزح معي منذ وقت قصير لكي اباريه في الصعود. تحجرت الدموع في عيون الرفاق. كانت الحسرة تعذبني. لقد فقدنا رفيقا آخر من رفاق السلاح.

و عندما سمع رئيس قسم المؤن ما حدث، اسرع عائدا الى الخلف و الدموع تملأ عينيه و دفن جثة لي تشيو شنغ و حمل الصندوقين اللذين كانا يحملهما لي تشيو شنغ و اقترب مني و أخذني من يدي و سار معي.

و بدون انذار اخذت الرياح تعصف بشدة و حجبت السحب السوداء الشمس و اسودت السماء كلها. و سقط المطر المختلط بالبرد. اشتدت الرياح و اصبح البرد كالحجارة، كل قطعة تسقط علينا في حجم البطاطا. و غطّى الرجال رؤوسهم بالطسوت الصغيرة او بالألحفة. اما انا فحاولت بكل قوتي ان اخرج غطائين من جلد الغنم كانا معي و اعطيت احدهما لرئيسي و الآخر ربطته على رأسي.

اخيرا مرَّت العاصفة. و في لحظات اصبح الثلج و الجليد المتناثر اكواما على جانبي زقاق صنعته ارجل القوات. كانت كل هذه الاكوام ترتفع الى اعلى من قامة

الانسان. و على جانبي هذا الطريق رقدت اجسام كثير من الرفاق الاعزاء الذين ناضلوا حتى لفظوا آخر انفاسهم من اجل مستقبل الشعب. و ناموا نومتهم الأبدية فوق هذه الجبال الثلجية. ((ان ابطال الوطن خالدون.))

و أخذ رئيسي يواصل سيره و العصا على كتفه تتدلى من طرفيها الاحمال و هو يجذبني من يدي لنقلي الى آخر مدى.

و ظل يقول لي: ((ان مواصلة الثورة ليس بالعمل السهل أليس هؤلاء الرفاق الذين يرقدون على جانبي الطريق ابطالا ضحوا بحياتهم من اجلها؟))

و اشتد احمرار عينيه و هو يتكلم. و سقطت الدموع الساخنة على يدي.

ثم استمر يقول: ((نحن مازلنا احياء. يجب ألا تضعف قوتنا. و يجب ان نستلهم من هؤلاء الشهداء القوة لمواصلة النضال.))

تحركت كل احاسيسي و انا اسمع كلامه. كنت لم آكل منذ ايام و المرض قد ارهقني. انا شيوعي، و لازلت حديث السن. و مادام فيَّ عرق واحد ينبض، فاستنفِذ القوة الباقية لأتسَلّق هذا الجبل. ضغطت على نفسي و اخذت أتسَلّق و أتسَلّق حتى وصلت اخيرا الى القمة.

و ضحك رئيس قسم المؤن فرحا: ((هاها مهما علت جبال تشياتشين، فانها لا تستطيع ابدا ان تُضعِف من العزيمة الصُلبَة لأبطالنا. و الآن لقد انتصرت يا تسانغ كوو خوا، و اديت هذه المهمة!))

بالطبع انني أشعر بمنتهى السعادة اذ وَصَلتُ الى قمة الجبل. و لكني كنت في غاية التعب و في كل مكان الجليد و احجار البرد. رأيت بناء صغيرا في ارتفاع منضدة و عليه اكوام من الحجارة. هنا، استطيع ان استريح. و عندما هممت بالجلوس وجدت نفسي مندفعا في سرعة الى اسفل الجبل، حوالي ٣٠ او ٤٠ خطوة و عندما توقفت نظرت حولي، كان الرئيس هو الذي دفعني.

و قال لي و هو يبتسم: ((الآن تستطيع ان تجلس و تستريح، و لكني كنت لا استطيع تركك تستريح عند القمة.)) ثم ذهب ليعتني بالرفاق الآخرين.

نظرت اليه و هو يرجع الى الوراء، و شعرت نحوه بعرفان الجميل و اتكأت على صخرة لاستريح، و ملأت يدي بالثلج و دسستها في فمي، و بالتدريج شعرت بتحسن. التف الجبل بالضباب و لمعت الشمس عند القمة. و نهضت واقفا و انا اتوكأ على عصاي، و مشيت في بطء نحو اسفل الجبل تاركا ورائي الجبال الثلجية الشاهقة.

قبعة رجل الجيش الأحمر

وانغ ته تشينغ ((ميجور))

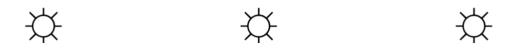
بدأت حرب المقاومة ضد العدوان الياباني في السنة الثانية بعد التحاقي بالجيش الأحمر. و لحماية شانسي و لايقاف تقدم العدو و لتنظيم المقاومة في أنحاء البلاد، كنا نحن اللواء الـ ١٢٠ نساعد القوات المرافقة في مقاتلة العدو الذي يغير على تاي يوان حول كوو هسين، و سينسيان، و نينجوو في شمال شانسي.

و في نهاية شهر تشرين الأول، كنا نقترب من وايتسون، النقطة الرئيسية لتموين اليابانيين في مهاجمة شينكو و المناطق الأخرى. و في ليلة حالكة السواد كنا نتلمس طريقنا الى داخل القرية من زقاق صغير عند المدخل الجنوبي. كانت أول اشتباكاتي مع العدو و كنت في غاية الارتباك، و لا أعرف كيف أتصرف. أخبرني قائد الفصيلة خو تونغ شنغ بان أتبعه مباشرة. كان محنكا اشترك في المسيرة الكبرى، و يثق به كل شخص.

((رات – تات – تات!)) انطلقت مدافع العدو السريعة الطلقات عند تقاطع الطريق، و فاتت الرصاصات من أمامنا. و من نور الأشعة رأينا ركنا في الحائط الذي أمامنا. و بدلا من أن يخبىء نفسه في موقع آمن، دفع بي رئيس الفصيلة الى الداخل و وقف أمامي ملاصقا للحائط الخارجي، كانت مدافع العدو تقصفنا في غضب أحمق و تنتزع حشوة أكمامنا.

استمر قائد الفصيلة يطلق رصاصةُ على العدو ليجعلهم يستنفذون كل طلقاتهم. و عندما لاح النهار سكتت مدافع العدو. و فجأة استدار قائد الفصيلة نحوي و قال لي: ((يا وانغ الصغير، استعد للهجوم!)) و من غير أن ينتظر اجابتي قفز و اندفع الى الأمام. تبعته. و عندما قاربنا من مدفعية العدو وتذكرت أني سمعته يصرخ: ((لنبدأ بها!)) تبعها في الحال صوت طلقتين مدويتين و في طرفة عين كنا وسط أعمدة

الدخان أمام العدو. و في صراع مع أحدهم أمسك قائد الفصيلة بالمدفع الرشاش و بهزة عنيفة شده الى جانبه ثم ركل جندي العدو مرتين و تركه هامدا لا حراك فيه. و في هذه اللحظة كانت هناك طلقة من ناحية اليسار، سقط بعدها قائد الفصيلة و هو يقبض على مدفعه. استبد بي الذعر، أسرعت اليه لأرفعه و أسنده على جسمي و أنا لا أعرف ماذا أفعل. ((في هذا الوقت كانت كل قواتنا قد دخلت القرية)) و بعد لحظة رفع رأسه قليلا و قال: ((وانغ الصغير. لا تخف ...)) ثم شاعت على وجهه إبتسامة باهتة و بآخر ما لديه من قوة أخرج قبعة مستهلكة و وضعها في يدي. كان يحاول جاهدا أن يقول شيئا و لكنه لم يستطع أن يجمع القوة الكافية ليتكلم. و فهمت ماذا كان يريد أن يقول لو كانت لديه القدرة على الكلام.



و قد اعتاد قائد الفصيلة خو تونغ شنغ أن يحكي قصة هذه القبعة:

كان (أي خو تونغ شنغ نفسه – ملاحظة الصوت الشيوعي) مقاتلا حديث العهد بالجيش، في سن السادسة عشر أثناء المسيرة الكبرى، و حول رأسه كان يربط فوطة فلاح و كان معجبا جدا بالقبعة التي يلبسها الزملاء القدامى، بحاجبها الجميل و نجمتها الحمراء. و قد شعر أنه، و قد أصبح رجلا. في الجيش الأحمر، يجب أن تكون له واحدة. فماذا يعني رجل في الجيش الأحمر و بلا قبعة! و لذلك قدم اقتراحا الى المقرر السياسي ليعطي له واحدة أثناء المسيرة الكبرى. و مع أن المقرر السياسي كان رجلا عجوزا و صحته سيئة إلا أنه كان ذا طباع لطيفة. كان ينظر الى المحارب الصغير كطفل، و في كل مرة يذكّره الأخير بحكاية القبعة، كان يضحك واعدا اياه باعطائه واحدة فيما بعد. و في الحقيقة أنه لم يكن يستطيع تنفيذ وعده اذ ليس هناك خيط واحد فائض عن الحاجة فما بالنا بقبعة!

كانت القوات تواصل زحفها بالرغم من نقص الأغذية، و تدهور الحالة الصحية. و في يوم، عندما كانت على وشك عبور جبل ثلجي آخر، شعر خو تونغ شنغ بأنه لا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة. فقد مشى يومين من غير طعام، و أصبح في

غاية الضعف و قد تمزق حذاؤه و تورمت قدماه. جلس على الثلج و أخذ يحملق في الجبل الذي أمامه و القمة التي ترتفع من بعيد، ثم لهث و لم يستطع أن ينهض فظن أنها النهاية فتفجرت دموعه.

و في تلك اللحظة جاء المقرر السياسي و كان الكبر قد بان عليه في الأيام القليلة الماضية، و غارت ملامحه و برزت وجنتاه و طالت لحيته. و أصبح وجهه هزيلا. و اذ كان يسير كان يلهث على نحو كئيب. و قد كان ضعيفا على الدوام غير أنه الآن يبدو في حال متردية. و لكنه كان يحاول دائما أن يبدو متماسكا و لم يشك أبدا من التعب. و قف الى جانب خو تونغ شنغ و قال: ((آه، انه أنت لماذا تبكي؟)) فرد عليه قائلا: ((أيها المقرر السياسي، أنا في شدة الجوع و لا أستطيع أن أمشي.))

جلس المقرر السياسي الى جانب خو، و أخذ يدلك له ساقيه ثم أخرج من جيبه القطعة الأخيرة من جلد الثور المسلوق و أعطاها له. و قد امتنع خو في بادىء الأمر، لأنه يعرف أن المقرر السياسي لم يأكل شيئا في اليومين الأخيرين. و لكن المقرر السياسي أصر على أن يأكل فاضطر خو أخيرا أن يقبل. و شعر خو بحب كبير جارف بين أضلعه.

و في أثناء الأكل، كان خو تونغ شنغ ينصت الى المقرر السياسي الذي كان يقول يجب على المرء ألا يتوقف هنا، فان هذا يعني الموت. ان الثورة شاقة، و لكنها لِسعادة الشعب الصيني كله، لذلك يجب أن نبذل قصارى جهودنا لكي نلعب دورنا فيها.

الآن شعر خو تونغ شنغ بالدفء و القوة تسريان في بدنه. و عندئذ ساعده المقرر السياسي على الوقوف و مضى به.

و في اليوم لتالي، عندما زحف الليل، بدأت الثلوج تتساقط بغزارة، كان خو تونغ شنغ يمشي في خطوات ثقيلة متعبة، يجر قدميه، خطوة بخطوة بين الثلوج و كان التنفس صعبا. كان في الواقع يريد أن يرقد و يستريح. و لكنه لم يجرأ، فقد كانت

كلمات المقرر السياسي ترن في أذنيه. عندئذ رأى أمامه رجلا يرقد على الثلج. و عندما اقترب منه، لم يجده غير المقرر السياسي انزعج خو تونغ شنغ و أسرع اليه. لقد سقط المقرر في التو و كان لونه أبيض كالثلج و هو يلفظ أنفاسه الأخيرة. عرفه المقرر السياسي و قال له في انكار: ((لا تبتئس ... استمر ... و لا تتوقف.))

قبع خو تونغ شن غالى جانبه في سكون. خلع الأخير قبعته و قال في هدوء ((تونغ شنغ ...)) ((قبعة الجيش الأحمر ... خذها ...))

و لما لاحظ أن الحذاء الذي يلبسه خو تونغ شنغ قد بلى، أشار الى حذائه هو، و كان ما يزال في حالة جيدة و قال: ((حذاء ... حذائي ... البسه ... أنا قد انتهيت.))

كانت كلماته مثل مدية طعنت تونغ شنغ في قلبه. تحامل على نفسه و حبس دموعه. و لم يستطع أن يقبل القبعة و الحذاء. فكيف يأخذ الحذاء عن قدمي قائده و زميله في الحرب – حتى و لو كان في أشد الحاجة له؟

و لما رأى المقرر السياسي أن خو لم يأخذ الحذاء، قال له: ((هيا ... هيا ... هيا)) كان هذا هو كل ما يستطيع أن يقوله. و لكنه كان كالأمر ثم أخذ صوته يذبل رويدا رويدا حتى تلاشى أخيرا.

أخذت الرياح تعصف في جنون و اشتد هبوط الثلج. و عندما أفاق خو تونغ شنغ من ذهوله، كان جسد المقرر السياسي قد برد و تجمد عندئذ فقط أدرك ماذا كان يعني عندما كان يقول ((هيا!)) فوقف فجأة، و كسر بعض الأغصان من شجيرة الى جانب الممر و وضعها على جسد الميت. و لبس قبعة المقرر السياسي و في حذر خلع الحذاء عن قدمي المقرر، و لبسه هو، ثم مشى في اعتداد و شجاعة وسط الرياح و الثلوج. و الدموع تنهمر على وجهه كفيضان المياه من نهر الجبل.

و لأول مرة، وضع خو تونغ شنغ قبعة للجيش الأحمر على رأسه. و كانت هي القبعة التي أعطاني اياها منذ لحظات.

☼ ☼ ☼

لقد مات خو تونغ شنغ رئيس الفصيلة، بعد أن وضع القبعة في يدي. و لو أنه لم يقل كثيرا، إلا أنني عرفت ماذا كان يريد أن يقول. لقد رأيت هذه القبعة أكثر من مرة، و سمعت تاريخها. و كم كان يشعر بالتعاسة حين أمرته القيادة بخلع قبعة الجيش الأحمر و ارتداء قبعة الكومنتانغ عندما أعيد تنظيم الجيش الأحمر و صار الجيش الثامن للطريق و من أجل التضامن في المقاومة ضد اليابانيين المعتدين. و بالطبع لقد أطاع الأمر و لكنه كان لوقت طويل يكبت الغيظ في نفسه. لف القبعة في ورق و وضعها تحت وسادته، و في وقت المعركة كان يحفظها معه. و في كثير من الأحيان كان يخرجها و يحكي لنا ما قاله له المقرر السياسي.

و لذلك عرفت ماذا كان يريد أن يقوله رئيس الفصيلة لي: كن مع الثورة الى الأبد. و لا تتوقف. استمر دائما عش و مت من أجلها، مثل المقرر السياسي العجوز. و كن مخلصا، كما كان مخلصا، للثورة، و أعطِها كل شيء، حتى حياتك اذا احتاج الأمر، من أجل الثورة.

كان مخلصا لكلمات حبيبه المقرر السياسي العجوز، فقد أثبت رئيس فصيلتنا في كل شيء أنه كان للثورة حقا.

الانتصار على المستنقعات

تان تشينغ لين ((ميجور))

في خريف ١٩٣٥، بعد أن عبر الجيش الأحمر للجبهة الرابع، سلسلة الجبال الثلجية الموحشة، استراح لمدة ثلاثة ايام في كانجماوسزو على طرف اراضي المستنقعات. و هناك بعد ان جمعنا بعض ثمار الصنوبر و الطحالب، اخذنا نشوي بعضا من جلد الغنم و الثور لطعام الميدان، و انطلقنا نحو المستنقعات. استغرق سيرنا من كانجماوسزو الى تشاليسزو على الناحية الاخرى من الاراضي الموحلة عشرين يوما و كنت في ذلك الوقت في السادسة عشر من عمري، حامل راية في كتيبة من الجيش الأحمر.

من كانجماوسزو، انتشرت المستنقعات كبحر واسع، غامض كئيب، ليس له حدود. و في الايام التي لا تطلع فيها الشمس لم تكن لنا طريقة لمعرفة الاتجاهات. كانت المستنقعات الخادعة تنتشر في كل مكان، تمتص الانسان و لو وقف على اثبت الاجزاء، و حاول تخليص نفسه بسرعة. و كنا على حذر في كل دقيقة، نخطو على كتل من الاعشاب. و مع ذلك كنا دائما في غاية الاضطراب، لأن كتل الاعشاب كانت تغوص من تأثير الضغط عليها، فتندفع المياه السوداء و تغمر اقدامنا. و في الحال، بعد ان نمر عليها تعود الى حالتها الاولى، غير تاركة اثرا للقدم. و الحق انها كانت أشبه بعبور رمال هشة خادعة و لحسن الحظ كانت الوحدة الامامية قد تركت حبلا من الوبر يتجه في تعرج حتى نهاية المستنقع. تقدمنا في حذر على طول هذا الجبل، خائفين ان نقطعه، لاننا نعرف انه ليس حبلا عاديا، و لكنه ((حبل الحياة)) الذي مدته الوحدات الشقيقة و بذلت فيه حياة الكثير من الرفاق المخلصين.

سرنا على طول الحبل اربعة ايام. و في اليوم الخامس بعد الظهر، جلست القوات لتستريح على شاطىء من العشب عندما تغير الجو فجأة. و هبت الرياح العاتية، و

غطّت السماء سحب سوداء. ثم اخذ البرد يتساقط و اعقبه في الحال سقوط الجليد بغزارة. و لتفادي هجوم العاصفة الثلجية، تجمع الرجال سوية في مجموعات و غطوا رؤوسهم بالالحفة.

و عندما توقفت العاصفة، القوا بالالحفة المحملة بالجليد جانبا، و عاونوا بعضهم البعض على النهوض. لكن الحبل كان قد اختفى. و انقلبت المستنقعات الى بحر من الجليد. فاخذ رفاق فرقتنا تحت قيادة القائد يسيرون صفا واحدا ليبحثوا عن الحبل. اخذوا يرفعون الجليد و يضعونه على شاطىء العشب و لكنهم لم يعثروا على أي اثر له.

لم نستطع ان نبقى كثيرا على الشاطىء، لان البرد كان قاتلا و لم يكن لدينا وقود لنشعله و ندفىء انفسنا. و حتى لو حاولنا التقدم فسنسقط في مستنقعات مخيفة. و لم يكن هناك بُد من الرجوع الى كانجماوسزو، و كان جبل واي فنج الذي تكاد تتعذر رؤيته دليلنا. و هناك ننتظر اشارة من الوحدة الامامية.

انتظرنا يومين في كانجماوسزو، عندما ارسلت الوحدة الامامية رفيقا مرشدا و معه رجل من قومية خان كمترجم. و مرة اخرى بدأنا السير بين المستنقعات.

كانت وحدتنا قد فقدت بعض افرادها في الرحلة السابقة، و مؤونتنا من ثمار الصنوبر و الطحالب قد استُهلِكَت. و من الصعب ان نجد كمية اخرى، حيث كسا الجليد الكثيف الجبال حول كانجماوسزو. و قبل ان نبدأ مرة ثانية وزعنا ملء الكف من الحبوب المشوية على الزملاء الذين غسلوها في ماء الثلج ((عندما دخلنا المستنقعات لأول مرة، كان الرفاق يشركونني نصيبهم لأنني كنت اصغرهم سنا، و لهذا فقد استطعت ان اقصد بعضا من نصيبي.)) و عندما دخلنا ارض المستنقعات للمرة الثانية اضطر الرجال الى شرب المياه السوداء المُرَّة لمدة يومين. و كانت النتيجة ان بطونهم اصبحت ممتلئة بالهواء، و ثقلت ارجلهم و اصبحت ضعيفة لا تقدِر على حملهم. و لمّا كان من المستحيل ان نستمر هكذا بدون طعام، لذلك بدأنا نقتلع الحشائش و الخضراوات البرية لنأكلها، و كنّا من قبل نهملها، و لا نعتبر لها

وجودا. و حينما يتعذر وجود عشب اخضر، كنّا نقتلع الاعشاب الجافة و نمضغ جذورها.

و قد ذقنا معظم انواع النباتات البرية على طول طريقنا. و أخيرا اكتشفنا نوعا من الشجر الشوكي القصير عاريا من الاوراق، و لكنه ذو ثمار صغيرة حمراء في حجم البازلاء، لها مذاق سكري حامضي مثل الكرز. و قد اعتبرناها من احسن اكتشافاتنا. و كلّما لمحنا مثل هذه الشجرة جرينا مسرعين في اتجاهها في اندفاع شديد. و بعض الزملاء كانوا ينسون انهم في مستنقع، فيغوصون في الطين و يختفون. اما اولئك الذين يصلون الى الشجرة فيأكلون حتى يمتلؤوا و يخزنوا الباقي للمرضى و المصابين من الرفاق.

و في اليوم السادس حفر احدنا في الأرض و أخرج منها نبتة مائية في حجم اللفت الاخضر، كان طعمها حلوا هشا. و في الحال بدأ كل واحد يبحث عن مثلها و لكن ثبت أنها سامة. و قد تقيأ الذين اكلوها بعد نصف ساعة، و مات منهم الكثير في الحال. و على ايه حال فلم يكن الموت ليعيق تقدمنا. فككنا اغطيتهم و وضعناها فوق أجسادهم. و حييناهم اعمق تحية، أولئك ابطال الجيش الأحمر المحاربين البررة، و مشينا في طريقنا.

و على كل، فقد اخذنا عبرة من هذه الحادثة. فاصبحنا لا نأكل أي شيء غريب بعد ذلك. و لا نعممه إلا بعد ان نفحصه بدقة.

في مرة كنت اتقدم حاملا العلم الأحمر، و فجاءة اهتزت الاعشاب تحت قدمي.

و قبل ان أستطيع رفعها الى اعلى، كنت قد غصت في الطين. ((الآن قد انتهيت اخذت افكر)) لكني لست خائفا من الموت، إنّما يجب عليّ ألا ألوِّث العلم الأحمر الذي هو فخر و مسؤولية لحامله. و ببطىء اخذت أشد صارية العلم في وضع عمودي، كانت يد واحدة تمسك بالعلم و الاخرى تحاول ان تضغط على الطين لكي استطيع ان اصعد الى الارض الصلبة. تجمعت قطرات العرق على جبهتي. و لكني

كنت كلما حاولت أن اصعد هبطت الى القاع اكثر. و سرعان ما غُصت في الطين حتى خاصرتي. و في هذه اللحظة الحرجة جاء كاتب ادارة الكتيبة و حمل الراية الحمراء مني و غرسها جانبا، ثم مد الي طرف من العصا البامبو التي يحملها. قبضت على طرف العصا بكل قوتي، و اخذ هو يجذبني بكل ما استطاع من قوة. و لكن مجهوده لم يثمر شيئا. بل على العكس فان العشب الذي يقف عليه قد بدأ يهبط.

رأتنا قوات المؤخرة في ورطة و نحن تحت العلم الأحمر، فأيقنت ان هناك شيئا غير عادي. و في الحال جاء مقاتل طويل ضخم. و في سرعة فك ربطة لحافه من على ظهره و فَرَدَه فوق العشب الكثيف و وضع عليه بندقيته في وضع متقاطع، ثم دفع طرف عصا البامبو و علقني بالطرف الآخر كالميت المخيف. جاء جنود آخرون و أخذوا يَعدون كما لو كانوا في معركة. و بعد وقت بدأ و كأنه لن ينتهي، استطاعوا ان يضغطوا الطين الى اسفل. و الآن يستطيع جسمي أن يتحرك بحرية. عند ذلك سألني الزميل الطويل الضخم ان أرقد، ثم بهزة قوية أستطاعوا ان يخرجوني من الطين.

كانت هذه هي المرة الاولى التي اُنقِذ فيها رفيق بهذه الطريقة. بكيت من شدة التأثير. و بالرغم من أنني لم أزل صغير السن، فقد قدَّرت تماما شعورهم و رعايتهم الأخوية. كان الزميل الضخم من افراد كتيبتنا، و لكني لا اعرف اسمه، حيث انني قد نُقِلت الى الكتيبة حديثا.

((شكرا، ايها الرفيق، انت ... ؟))

و لكنه قاطعني، و هو يشير الى المحاربين الآخرين: ((تان الصغير، انهم هم الذين انقذوك. إن اسمي لا يهم.))

و كان رفيقا عظيما. و قد اخبروني فيما بعد، انه منذ الدقيقة التي دخلنا فيها اراض المستنقعات، و هو اكثر الرفاق مرحا و صفاء بين رجال الكتيبة جميعا. و لم يكن الجوع و لا التعب ليوقفه عن الكلام او القاء النكت. كان اثناء المسيرة، دائما

يحمل ثلاثة بنادق على كتفه. و منذ ذلك الوقت، كنّا في المسيرة الكبرى و في اثناء المعارك، دائما من أقرب الاصدقاء.

كان الوقت بعد الظهيرة، حين برز امامنا نهر يبلغ عرضه حوالي ٢٠٠ متر. و على شاطئيه تعلو بعض الاشجار و لكنها عارية من الاوراق. اما مياه النهر فقد ارتفع منسوبها بعد سقوط الامطار لمدة يومين متتالين، و الآن فان المياه تتسابق في سرعة في اتجاه الجنوب الشرقي.

قادنا الرفيق الى شجرة، لُفَّ حولها سلك يتجه نحو الشاطىء الآخر للنهر و تنفيذا لأوامر القائد قفز المقاتلون الى الماء، و بيد واحدة قبض كل منهم على السلك، و باليد الاخرى حمل بندقية الى اعلى ثم خاضوا عبر الماء. كنت قد قطعت ١٢ مترا عندما انقطع السلك نتيجة لمقاومة الرجال لضغط تيار المياه. سقطت و معي العلم الأحمر، تشبثت بصارية العلم، و كان جسمي يرتفع و ينخفض على سطح الماء. لم استطع ان اقف على قدمي، و بدأت المياه تملأني. و لحسن الحظ رآني آمر الكتيبة الذي كان قريبا من الشاطىء، فركب حصانا و سار على الضفة في اتجاه العلم و عندما امسك به، طفوت على سطح الماء و امسكت بذيل الحصان، و بعد قليل وصلت الى الشاطىء. و كان التعب قد اهكنا و انهك الحيوان ايضا، فنام ثلاثتنا لمدة طويلة على الشاطىء غير قادرين على الحركة.

و فيما بعد، ارسل آمر الفوج الرجال ليصلحوا السلك. و قبيل الفجر، كان الفوج كله قد عبر النهر بنجاح.

و بعد ظهر اليوم التالي، ظهر امامنا تل مثل سمكة شبوط متوسطة الحجم يكسوه الثلج، تجمعت عليه بعض الاشياء، التي تبدو من بعيد و كأنها بيوت مغطاة بالثلج قادنا هذا الموضوع الى نقاش طويل.

((هناك، انظروا الى البيوت، و الدخان ايضا!))

((هذا ليس دخان، انه ضباب.))

و من الذي لم يتق الى رؤية رجال و دخان و سكان، بعد هذه التجارب و المحاولات في المستنقعات. و الذي تكلم اولا هو بلا شك اكثرهم اشتياقا.)) ربما كان في المكان اناس يعيشون حقا. فلنذهب بأقصى سرعة.

عندما خيم الظلام كنا قد وصلنا الى الجبل. اما هذه البيوت الوهمية و الدخان الخادع فقد تاشت، و الواقع ان عيوننا لم تعثر إلا على غابة صغيرة من اشجار الصنوبر الضخمة. ((على أي حال، لقد ودَّعنا المستنقعات!)) و شعر كل واحد منا بالراحة.

تقرر ان نعسكر في هذا المكان. فهنا قد وجدنا مخبأ ضد الرياح و سوية جمعنا بعض الاخشاب و الاغصان من تحت الثلج و أشعلنا نارا. و كانت أسعد حادثة عندما عثر المقرر السياسي على بعض ثمار الصنوبر. و بتشجيعه، بدأ كل منا يبحث عن المزيد. ثم جلس الجميع حول النار، يأكلون ثمار الصنوبر و الطحالب و قد احمرت وجوههم النحيلة الصفراء من وهج النار. كنا نحن الأربعة، آمر الكتيبة، و كاتب الادارة، و البواق و أنا، نجلس سوية في حلقة نتكلم و نمرح، نسخن اكوزنا المحطمة المملوءة بماء الثلج. ثم رحنا في سبات عميق بجانب النار.

و بشرت ريح شمالية غربية بطلوع الفجر. و ماتت النار. و اهتزت فروع الاشجار و قعقعت و تناثر من عليها الجليد و سقط علينا. و قد جاهد آمر الكتيبة كثيرا لينهض و يقف قدميه. هزني، فاستيقظت و لكن لم استطع القيام، فالجليد الذي كان قد ذاب تحتي بفعل سخونة جسمي، قد تجمد ثانية اثناء الليل، حتى باتت قدماي و كأنهما ثبتتا الى الأرض. ساعدَني آمر الكتيبة على تليين مفاصلي، و تم ذلك بعد مجهود شاق، و استطعت ان اقف تاركا على الأرض قالبا لجسمي.

حاولنا ايقاظ البوّاق، هززنا جسمه مرات و مرات و لكنه كان فاقد الوعي كان جسده باردا و قلبه لا ينبض. ضغط آمر الكتيبة جسمه على صدر البوّاق، ظنا منه ان ذلك سيدفئه و ربما يساعده على الحركة، لكن لم تكن هناك فائدة. دمعت عينا الآمر ثم مشى في سكون الى الحلقات الاخرى.

و كما فعل آمر الكتيبة، كان المقرر السياسي و الآخرون الذين استطاعوا ان يقفوا على اقدامهم، منهمكين في انقاذ رفاقهم في السلاح. و في سكون أبدي رقدت اجسام بضعة عشر من الرفاق. و تبقى اقل من عشرين رفيقا في الكتيبة و كانت في يوم من الأيام تتكون من أكثر من مائة شخص. مرَّ وقت عصيب على آمر الكتيبة و على المقرر السياسي و هما ينتزعان نفسيهما من بين اجسام اخوانهما الشهداء.

نزلنا الجبل. و بدأ الجو ينقشع، و بدأت اجسامنا تدفىء من حرارة الشمس و أخَذَت حُزَم الدخان تتصاعد من ملابسنا التي كانت مغطاة بالثلج، كأننا خرجنا لتونا من عين ساخنة.

((بيت، أنظر بيت!))

((انه معبد الاما!))

((الآن قد عدنا ثانية الى كتيبة الرجال!))

ليس هناك كلمات تستطيع أن تصف فرحتنا عندما رأينا على بعد معبد تشالى كل واحد منا كان مغتبطا لأنه قد عبر جبال المستنقعات الثلجية. و ضحكنا كثيرا و نحن نلعن ارض المستنقعات. اما مَعِداتنا التي قد عذبها الجوع طويلا، فقد بدأت تتذمر و هي في انتظار أكلة حقيقية.

و على بعد اثنين لي او ثلاثة من المعبد، كان هناك نهر صغير يسد طريقنا. و في صوت واحد صرخنا كلنا و قفزنا الى الماء و في طرفه عين وصلنا الى الشاطىء الآخر.

و هناك على أعلى المعبد، كان علم أحمر خفّاق يحيينا.

فتى الجيش الأحمر في المسيرة الكبرى

لياو هسينغ ون

في خريف ١٩٣٥، عبرت ثلاث مرات مع الجيش الأحمر الرابع للجبهة، المنطقة المهجورة التي تمتد في سهول و مستنقعات عشبية و تغطي مساحات واسعة من ماوئرهكاي الى شانغ باوتسو. و لن أنسى ابدا هذا البحر اللانهائي من الأعشاب و المستنقعات، فقد ترك في نفسي إحساسا لن ينمحي. و كنت في ذلك الوقت صبيا في الرابعة عشرة من عمري.

بدأ الزحف في آخر آب ١٩٣٥. تدفقت القوات في اتجاه السهل الاخضر المنبسط. و كان بين صفوف اللواء الـ ٢٦٧ من الفرقة الـ ٨٩ مجموعة ((الفتيان)) – اعضاء قسم الدعاية التابع للادارة السياسية للفرقة. كانوا جميعا صغار السن، عددهم عشرون، قائدهم و هو اكبرهم سنا يبلغ من العمر ٢٠ عاما. و كانت جماعتنا المساعدة المكونة من خمسة افراد قد اعيد ترتيبها قبل الزحف. و قائدها تشاو كانغ يكبرني بعامين و كان كذلك اكبرنا جميعا. كان طويلا بالنسبة لسنه، يبدو كالكبار رقيقا و طيبا في معاملته لنا. و كنّا جميعا نحترمه و نحب الحديث معه. اما اصغر جماعتنا، خو تنغ تانغ، فكان عمره ١٢ عاما. كان قصيرا و لكنه قوي يجري كجرو النمر، و لكنه كان كثيرا ما يتدحرج. لذلك كنت اطلق عليه اسم، ((الكرة الصغيرة)). و اصبح فيما بعد معروفا بهذا الاسم الذي قبله بعد مناقشات فلسفية.

كانت مطامحنا كثيرة بالرغم من حداثة سننا. و شرح قائدنا لكل واحد منا الاعمال قبل ان ندخل المنطقة بعدة ايام. و قادني هو مع ثلاثة آخرين ليبحث عن طعام و كلف ((الكرة الصغيرة)) بالحراسة. و كنتيجة للدعاية الكاذبة التي بثها العدو و تكرار الحروب المدمرة، فرَّ التبتيون القاطنون في هذه المنطقة التي كنا نعسكر فيها جميعا. لم يكن عندنا ما يكفي من شعير الهضاب و الحنطة السوداء. و كانت

الحبوب التي نجمعها في اليوم لا تكفي لسد رمقنا فمن أين نحصل على البقية؟ و عندما قاربنا على الرحيل كان لدى مجموعتنا ١٢ كاتي ((الكاتي نصف كيلوغرام)) من الشعير المشوي و الحنطة السوداء. و وضعناها كأنها حبات اللؤلؤ في حقيبة من جلد الثور.

نادى البوّاق. و بدأ المحاربون الحمر في التقدم. و حمل قائدنا بنفسه الحقيبة الثمينة. ثم قال: ((لن يأكل واحد منا أي حبة من غير إذن قائد الجماعة.))

أما بقيتنا فقد حمل أحدنا حزمة من الحطب، و آخر حمل خيمة مصنوعة من أقمشة بالية، أما أنا فكنت أحمل طبلة و ناقوسا للتنبيه، و ((الكرة الصغيرة)) يحمل وعاء مشدوخا أسود مغطى بالسناج – مدهشا في غلي الماء و طهو الطعام. و كان كل فرد منا يضع على رأسه قبعة ذات حافة متآكلة لا بد و ان منظرنا كان مضحكا من بعيد، و نحن نتمايل تحت اشعة الشمس كصف من الطحالب. كان معظم الملابس التي نرتديها قد صودر من الاقطاعيين، و قد احالتها الرياح و الأمطار الى حالة مزرية تستحق كل إشفاق و كانت لهذه الملابس ميزة واحدة. و هي اننا عندما – كنا نؤدي تمثيلية لم نكن نفكر كثيرا في مشكلة الملابس. كنت ارتدي صديريا أسود كان في الأصل لأحد الاقطاعيين، و قائدنا يرتدي ثوبا فضفاضا، أما ((الكرة الصغيرة)) فكان يلبس قميصا نصفيا لفتاة، أحمر اللون عليه زهور صفراء – فأطلق عليه الجميع اسم ((امرأة الأخ!)) و كان الطابور الطويل، في ملابسه البالية الكثيرة الالوان يشبه في منظره المستعرضين في يوم العيد، و يضفي لونا جميلا على السهل الهادىء المهجور.

زحفنا على بطوننا الخاوية حتى دخلنا ارض المستنقعات فكيف يعيش خمسة اشخاص لمدة سبعة او ثمانية ايام على ١٢ كاتي من الحبوب السوداء كالفحم؟ و لذلك قسمنا العمل فيما بيننا عندما عسكرنا: ((الكرة الصغيرة)) يقوم بمهمة ((الطاهي)) التي هي عبارة عن اعداد النار و غلي الماء. اما بقيتنا فعليهم ان يتجهوا للبحث عن الخضروات البرية، أبصال برية، كرفس بري، و نباتات أخرى

– فكل هذا طعام جميل. و مع ذلك فقد كان صعب المنال. لان القوات التي سبقتنا قد قامت بهذه المهمة خير قيام. و كان علينا ان نَجري مسافة ((لي)) لكي نحصل على مثل هذه الخضراوات. و كان علينا ان نرقب كل خطوة، فان اقل إهمال منا، ستكون نتيجته ان نسقط في الوحل، و لنتفادى ذلك الخطر، تقدمنا و كل منا يمسك بيد الآخر او يمسك بعمود يستند عليه.

و بعد ان جيىء بالخضراوات البرية، انهمك كل منا في غسلها و سلقها ... و بعد ان غلت ((الخضراوات)) و بدأ لونها يصفر، اخرج قائدنا شعير الهضاب و الحنطة السوداء من حقيبته و وضعها في الماء المغلي، و هو يعد كل حبة كما كانت قطعا نقدية من الفضة ثم جلسنا حول النار نأكل و نتكلم و نضحك

((ان هذا شعير مطبوخ مع الحم!))

((لا، انه بصل مسلوق مع الشعير.))

و هكذا، بدأنا نعلق على الطعام. و أخيرا قال قائدنا: ((انكم جميعا مخطئون. انها كعكة رائعة. انظروا، فالشعير هو التمر و الحنطة السوداء هي بذور اللوتس ...))

((انها كعكة رائعة حقا!)) رددها جميعنا في فرح و نحن نلتهم الطعام ناسين المذاق المر للخضراوات البرية.

في اراض المستنقعات، و لو أن الوقت كان منتصف اغسطس، إلا ان الجو كان متقلبا يتغير في كل لحظة من لحظات النهار. سحابة سوداء تتجمع في السماء فجأة تحجب الشمس الساطعة ثم تهب الرياح و تسقط الامطار الغزيرة. اما الليل فكان اكثر مللا. فالسماء المضيئة بالنجوم كانت منظرا سريع الزوال و في كل لحظة يحتمل نزول المطر، و البرد و حتى الثلج.

و الى جانب الجوع، يجب ان نحارب العناصر الاخرى. الجوع و البرد و التعب تضع ارادة كل مقاتل احمر تحت الإختبار القاسي.

و في احد الايام عندما كانت الشمس تغيب في بطء عند الافق، قررنا ان نعسكر، بدأ الدخان يتصاعد من النيران الى الهواء الساكن، و بعد ان شربنا حساء الخضراوات البرية و استرددنا بعض قوتنا، ذهبنا لنبحث عن مكان نعسكر فيه. و في الوقت المناسب وجدنا جدول ماء تلتف حوله اشجار الصفصاف الكثيفة الزاحفة. فرح القائد بذلك كثيرا و قال: ((انطروا، يا رفاق! هذه الليلة لن ننام و نحن جالسون القرفصاء. سنجمع بعض فروع الاشجار و نفرشها على الارض و نضع فوقها الأغطية ثم نعد الخيمة أفلا يكون ذلك سريرا واسعا مريحا لنا جميعا؟))

و فكرت في وسيلة اخرى مدهشة و اقترحتها عليهم: ((وما رأيكم لو وضعنا بعضا من العشب تحت الأغطية، أفلا يكون ذلك أكثر راحة؟))

فقالوا: ((ان المجموع يولد الفطنة دائما.))

و في اقل من لمح البصر كنا قد حققنا رغبتنا. ثم قال ((الكرة الصغيرة)) في مرح: ((سننام الليلة في بناية.))

و هكذا استلقينا على ((سريرنا)) و نمنا كصغار الحيوانات التي ترقد في القش.

و لكن لم يُقدَّر لنا ان ننعم بتلك الراحة النادرة. ففي منتصف الليل، استيقظت و كنت اشعر بالبرد. و جلست، و خلال الشقوق كنت ارى غطاء كثيفا من الضباب، قد غطّى السماء كلها. كان كثيفا لدرجة انك لا تستطيع رؤية يدك التي امامك إن العاصفة تقترب: و من بعيد اسمع عواء الرياح. و في الحال تقريبا جاءت الريح و المطر.

أستيقظ زملائي الأربعة من نومهم الحلو. و قال القائد: ((حظ عاثر. هل من الواجب ان تمطر السماء الآن خلافا لكل الأوقات!))

قصفت ريح عاتية، و خلعت سقف البناية. الخيمة الممزقة. و تحت هذه الظروف، لم يكن باستطاعتنا ان نفعل شيئا، سوى ان نجلس القرفصاء، ظهر كل منا ملاصقا لظهر الآخر، لكي يدفىء بعضنا البعض. كان المطر و البرد في حجم التمرة، ينهمر

على رؤوسنا. و ابتلت ملابسنا و اجسامنا و صرنا و كأننا نسبح في ماء. كانت قبعاتنا المصنوعة من القش عاجزة عن حمايتنا من قطع البرد. و كانت اسناننا تصطك. و كنا نقف من وقت لأخر و نحرك اقدامنا، فالذي لا يداوم على هذه العملية سوف لا يستطيع ان يتحرك بعد ذلك. استمرت عاصفة المطر على اشدها حتى الفجر عندما بدأت تتوقف تدريجيا. حركنا انفسنا، و رددنا الخيمة الى حالتها الاولى قبل العاصفة، و جهزنا الادام و بعد ان شربنا حساء الخضروات البرية، بدأنا من جديد.

شددنا رحالنا، و وضع الجوع و البرد كل امرىء تحت الاختبار. عند ذلك الوقت كانت مؤونتنا من الحبوب قد نفذت، و هكذا كان الحال مع بقية الرفاق، حتى الحشائش و الخضروات البرية الصالحة للأكل اصبحت نادرة الظهور.

و بالرغم من هذه الصعوبات و المشاق، فان الحياة الثقافية و الترفيهية قد اصبحت اكثر بهجة و حبورا شددنا احزمتنا و جررنا اجسامنا المرهقة، متبادلين الحديث و مغنين، مرتجلين الأناشيد، و القصص الشعرية و غير ذلك.

و في احد الايام وصلنا الى مكان تعسكر فيه فرقة من القوات على سطح جبل صفق الجميع عندما رأونا و رحبوا ((بالفتيان الصغار)).

و في المساء اقمنا احتفالا. و جلسنا في حلقة، حول النار التي تشتعل من كوم مرتفع، فاحسسنا بالدفىء و الراحة.

كانت اول فقرة من البرنامج هي ((رقصة الأطفال)) و بعد ان حيينا المتفرجين بدأنا نغني: ((جلد الثور شيء جميل يو – هاي! شيء جميل يو – هاي! و لكن لو أكلت قطعا كثيرة منه فسينتفخ بطنك!))

و عندما أنتهينا، انفجر الجميع ضاحكين و صافحونا. ثم جذب احد الصحاب الكبار ((الكرة الصغيرة)) جانبا، و اخذ يفتش جيوبه كأنما يجمع شيئا و بعد ذلك

اخرج حفنة من الشعير المشوي و أعطاها له. و قال له و هو يدفعها نحوه: ((خذ هذه ايها الأخ الصغير.))

و لكن كيف يقبل ((الكرة الصغيرة)) مثل هذه الهدية الثمينة؟

((و ماذا ستأكل؟))

((هذا لا يهم. فأنا استطيع ان احتمل اياما طويلة!)) ثم بدأ المحاربون، يغنون من تلقاء انفسهم في صوت جهوري:

((ان على الجيش الأحمر ثلاث مهام كبار:

القضاء على الامبريالية،

ازالة القوى الاقطاعية و تنفيذ اصلاح و توزيع الاراض،

تأسيس القوى السياسية للبروليتاريا.

من كل حسب قدرته و لكل حسب حاجته!))

و في حلكة الظلام، صارت اراضي الأعشاب تهتز من حماس الاغنية. و رجعنا الى خيمتنا، و عندئذ أعطى ((الكرة الصغيرة)) الشعير المشوي الى القائد، فصنعنا شرابا شهيا من الشعير المخفف بالماء و بعد ذلك اخذنا نثبت خيمتنا. ثم نمنا يستند احدنا على الآخر.

قومية ((يي)) تستقبل الجيش الأحمر

آيرهموهسيا ((ليفتانت كولونيل))

في آذار ١٩٣٤، كنا نحن شعب قومية يي مع الفقراء من شعب قومية هان في اقليم يويهسي، غير قادرين على ان نوقف استغلال و قسوة حكومة الكومنتانغ الرجعية. و لكننا قمنا جميعا في آن واحد في نواحي هايتانغ و وانجتشياتانغ و باوان، في قوة تبلغ اربعة آلاف رجل و ابدنا الكتائب الثلاث لجيش الكومنتانغ الـ ٢٤ و حاصرنا مركز المحافظة لمدة ثلاثة ايام. و لكن بمجرد دخولنا المركز، ارسل العدو إمداداته من هسيتشانغ. و قد عانينا من تعطل حركتنا فكان علينا أن نتقهقر. و احتمينا في غابة على جبل في شرقي المحافظة و في نيسان ١٩٣٥، شاع نبأ قدوم الجيش الأحمر.

و قال تقرير ان قوات الكومنتانغ تتبعثر، و ان الاقطاعيين و الاثرياء في البلد يغادرون المكان ايضا في سرعة كبيرة و قال البعض ان الجيش الأحمر سينهي امر الكومنتانغ و يقضي على الاقطاعيين و يؤدي اعمالا طيبة للفقراء، و لكن البعض صور الجيش الأحمر كجماعة من السفاحين و المغتصبين[٦]. هل هم حقا القوات التي حاربت الكومنتانغ باسم الفقراء؟ ام هل كانوا يتصرفون كما تتصرف قوات الكومنتانغ؟ لم يكن امامنا سبيل لمعرفة الحقيقة. و اخيرا قررنا ارسال ثلاثة رجال ليتحرَّوا الامر.

اكدت تقاريرهم انسحاب قوات الكومنتانغ و هروب الأسر المعروفة بثرائها، و الوصول المتوقع للجيش الأحمر. و قد حاول موظفو الكومنتانغ المحليون ان يجبروا الاهالي على مغادرة المكان قائلين: ((ان الجيش الأحمر و الشيوعيين سوف يجعلون كل شيء مشاعا، الممتلكات و الزوجات و كل شيء.)) و منعوهم من ان يسألوا أي

[٦] - راجع الهامش رقم (٥). – ملاحظة الصوت الشيوعي.

اسئلة عن الجيش الأحمر. و هكذا غادر بعض الأهالي اماكنهم لعدم معرفتهم بحقيقة الوضع.

و بعد هذا كله، فماذا عرفنا عن الجيش الأحمر في الواقع؟ اخذ كل واحد يخمن. شيء واحد عرفناه، و هو ان الجيش الأحمر قد حارب الكومنتانغ و ان لم يكن كذلك، فلماذا اذن هرب هؤلاء الوحوش المجرمون بمثل هذه السرعة. و اذا كان الامر كذلك، أ ليس من الأصوب لنا أن نساعد الجيش الأحمر في حربه ضد الكومنتانغ؟ و اذ أدركنا ذلك تركنا الجبل و عدنا الى مركز المحافظة.

كانت يويهسي صورة للبؤس. ان هؤلاء الذين عارضوا الكومنتانغ و الاقطاعيين قد دُمِّرَت ديارهم. و نهبت قواتهم ممتلكات السكان قبل رحيلها. و اكثر من بيت اصبح مجرد حطام، مفتوح الباب. و تبعثرت كسرات من قوالب الطوب و ألواح الخشب و القش و الثياب البالية على ارض الشارع الخاوي. و أغلق الناس نوافذ و ابواب دورهِم خوفا من الكوارث المتوقعة.

و في صباح احد الايام. كنا مازلنا نبحث عن معلومات. و في اثناء سؤالنا احد اصحاب الحوانيت عن الجيش الأحمر اذ بنا نسمع وقع حوافر تأتي من بعيد. و أمعنّا النظر، فرأينا خمسة جياد مقبلة يمتطي كل واحد منها فارس شاب في ثياب الحرب، يبدو في مظهر عسكري. يضع على رأسه طاقية ذات حافة امامية مثمنة مزدانة بنجمة حمراء، و في قدميه يلبس نعلا من القش و من كتفه تتدلى بندقية و حول خصره حزام من الأعيرة النارية.

تَرَجَّلوا بمجرد ان رأونا.

و قالوا في ابتسام و هم يسيرون نحونا: ((ايها الاصدقاء، مهما قيل لكم فلا داعي لان ترتعبوا منا.))

لم نكن مطمأنيين و لكن لمّا رأينا مظاهر الصداقة بادية عليهم فقد تقدمنا لمقابلتهم.

((لا تخافوا ايها الصحاب المواطنون. نحن جنود الجيش الأحمر، الذي يعمل لصالح شعوب الاقليات و يحطم قوات الكومنتانغ الرجعية.))

و قلنا في دهشة: ((الجيش الأحمر!)) و على الفور احطنا برجال الجيش الأحمر الخمسة ذوي المظهر الرقيق و تشابكت ايدينا، و نحن نتفحص بعضنا البعض، هم ينظرون الى عباءاتنا و الشوشة الطويلة على رؤوسنا، و نحن ننظر الى نجومهم الحمراء.

((لقد شاع ان اصحابنا المواطنين هنا و خصوصا شعب قومية يي ((هذه اول مرة نسمع فيها مثل هذه التحية العزيزة))، هم تحت جور رجال الكومنتانغ الرجعيين. و اننا لمتأكدون أن الاعداء قد ارهبوكم بتلك الاشاعات التي اطلقوها قبل رحيلهم. و نأمل ان تواصلوا حياتكم الطبيعية و تجارتكم. و سوف نقيم هنا لبضعة ايام و نضمن لكم ألا تعانوا أي خسارة.))

صافحونا مبتسمين، و ساروا لزيارة عائلات البلدة تحيط بهم و ترافقهم جمهرة من الناس الذين تجمعوا على هذه الأنباء.

و بالتدريج بدأت الحوانيت في الشارع تفتح ابوابها. و تناقلت الأفواه أنباء وصول رجال الجيش الأحمر.

و بعد الظهر دخل الجيش الأحمر البلدة، يعزف في قوة عظيمة لحنا عسكريا تحيط به نظرات الاستطلاع من المواطنين: ارتدى بعض المحاربين الحمر ملابس مدنية، و كانت تبدو عليهم جميعا الحيوية و القوة، كانوا يبتسمون و يلوحون بأيديهم للناس اثناء سيرهم. لم يدخلوا بيوت المواطنين الخالية بل ظلوا سائرين حتى وصلوا الى مدخل برج الطبول حيث جلسوا ليستريحوا. و في الحال أحاط الناس بهم. و بدأ بعض المحاربين يتحدثون الينا، و بعضهم أخذ يداعب الاطفال. و عندما أخذ الناس يتجمعون مكونين صفوفا بعضها وراء بعض ملتفين حول الجنود، صعد الى المنصة محارب يتدلّى مدفعه الموزر وراء ظهره. و خاطب الجمع:

((ايها الاصحاب المواطنون! نحن الجيش الأحمر الصيني للعمال و الفلاحين بقيادة الحزب الشيوعي الصيني، لقد كنا في احد الايام مثلكم اناس فقراء نئن تحت ضغط الموظفين الرجعيين و الاقطاعيين و الرأسماليين و لمّا لم نكن نستطيع ان نصبر على ذلك فقد التحقنا بالجيش الأحمر. و ما لم نطوح برجال الكومنتانغ الرجعيين و نحرر الصين كلها، فلن يستطيع أي انسان ان يعيش في سلام و سعادة. و الآن تغزو الامبريالية اليابانية بلادنا، و لن تقاومهم حكومة جيانغ كاي شيك. و لكي ننقذ الامة فسنتقدم شمالا لنقاتل اليابانيين. و نحن نرحب باخواننا من جميع القوميات الذين كرسوا انفسهم من اجل الوطن ان يلتحقوا بالجيش الأحمر.))

هاجت الجموع. و كانت عبارات ((لنلتحق بالجيش!)) ((لنحارب الرجعية!)) ((لنحارب الامبرياليين اليابانيين!)) جديدة عليهم.

شعرت باضطراب و ابتهاج لقد أتوا حقا لمحاربة الكومنتانغ. و هممت بتسجيل اسمي و لكني عدت ثانية و قررت أن أتمهل حتى استطيع أن احسم امري.

((انظروا! ان الجيش الأحمر يفتح السجن. اسرعوا!)) و بدأ الناس يَعدون في صياح نحو مركز حكومة المحافظة. و عندما وصلت كان المبنى يعج بالناس. و في القاعة و عند الفناء امام السجن اشعل المحاربون النار و اخذوا يلقون باكوام من مستندات الكومنتانغ تعلو وجوههم حمرة من انعكاس اللهب. كنا ننظر اليهم في فرحة كبرى و في تلك الاثناء تعالت الهتافات: ((عاش الجيش الأحمر!))

حمل فتيان اشداء من جنود الجيش الأحمر كتلة ضخمة من الخشب ليدقوا بها بوابة السجن الحديدية العالية الكئيبة. اخذوا يوازنونها في استعداد، ثم صاح احد منهم: ((استعد – اضرب!))

((بانغ!)) ارتطمت كتلة الخشب بالبوابة، التي تحطمت و هوت الى الارض. محدثة ضوضاء عالية.

((عاش الجيش الأحمر! عاش الجيش الأحمر!))

و بانفعال شديد، تقدمت أتلمس طريقي بين الجموع الى داخل السجن كان الظلام مرعبا في الداخل. و من المكان انبعثت رائحة تبعث على التقيىء. تقدم المحاربون الحمر ببطارياتهم الى الداخل بدون ما وجل ينادون: ((ايها المواطنون الاصدقاء. يا من قاسيتم كثيرا! نحن جنود الجيش الأحمر. لقد اتينا لإنقاذكم.))

تبعتهم الى الداخل. و ياله من منظر يفتت القلوب. لقد كانت اجسامهم نحيلة مثل كرمة عنب ذابلة و شعورهم الطويلة مسترسلة، عرايا و احسنهم حالا من كان يلف حول خصره لباسا باليا، يرقدون في مزيج من الوحل و الماء القذر و البراز كانت ايديهم مكبلة و مقيدة الى بعضها بسلسلة. و كان بعضهم قد فارق الحياة[٧] و بعناية فك المحاربون الحمر تلك السلاسل و نقلوهم الى الخارج حيث الهواء النقي. و قمت مع الآخرين بمساعدتهم. كان عدد الذين اخرجناهم حوالي مائتين. لقد كانوا رؤساء قبائل يويهسي، و لو هسيونجول، و اهو وكووتش. و قد بقوا في السجن حوالي اثنى عشر عاما. و قد عُذِّبَ نفر لا حصر له باساليب مختلفة حتى فارق الحياة. و لِمَ كل هذا؟

لأنهم لم ينفذوا سياسة الكومنتانغ بأن ((يضرب شعب قومية يي بعضهم البعض.)) لان قلوبهم أبت ان تقتل اخوة لهم من قبائل اخرى. لأنهم رفضوا ان يقدموا الفتيات الشابات لموظفي الكومنتانغ كما كانت تقضي ''التعاليم!'' او لأنهم لم يقووا على دفع على دفع الضرائب الفادحة التي لا تنتهي.

و ارهابا للآخرين اقام الكومنتانغ ما سموه بنظام ''المناوبة'' فاذا ''أدين'' احد رؤساء القبائل باحد ''الذنوب'' المذكورة فعليه ان يقضي مرحلة طويلة في السجن و خلالها يعامل كل رئيس قبيلة بالتعاقب هو و اولاده و احفاده بنفس القانون. و الواقع

---

٧ - هذا هو نظام الكومنتانغ الرجعي الذي تحميه و تدافع عنه كل من اميركا و بريطانيا و اذنابهم من الدول الغربية ''الديموقراطية؟!!'' الى يومنا هذا في تاي وان!! أين هي ''حقوق الانسان''؟ هل أن طغمة القتلة في تاي وان تمثل ''حقوق الانسان''؟!! – ملاحظة الصوت الشيوعي.

انه كان موتا بأي شكل – في السجن او، بعد ذلك، في البيت من تأثير التعذيب بالسجن. و بهذه الطريقة أبيدَت بعض مجموعات من القبائل.

اما المنظر المفجع لأولئك الذين بقوا على قيد الحياة، و المنظر الرهيب لأولئك الذين فارقوها فكان يبعث موجة من النواح و العويل بين أهليهم الذين كانوا حاضرين، و شاركهم من حولهم نفس الشعور. و أنا ايضا لم استطع حبس دموعي. و قد شكر الجيش الأحمر أولئك الذين ضحوا بحياتهم و كذلك عائلاتهم. و توسل أهل الضحايا الذين فارقوا الحياة، وسط نحيبهم، الى الجنود بأن ينتقموا لأحبائهم. فأخذ المحاربون الحمر و الدموع تملأ عيونهم في مواساتهم. أيها المواطنون الأصدقاء، سوف نذكر ثقتكم بنا و سوف ننتقم لكل الذين قاسوا على أيدي الكومنتانغ الملطخة بالدماء، سوف نمحيهم من الوجود.

شعرت بموجة من الحنق المرير. و اندفعت صائحا: ((سأنضم اليكم لأحارب الكومنتانغ!))

قَطعَت صيحتي المفاجأة الجو الكئيب. و لبرهة وجيزة تطلع الجميع اليَّ بوجوه خالية من أي تعبير. ثم حذا كثيرون حذوي. و تعالت صيحاتهم: ((و أنا ايضا سأنضم اليكم لأقاتل الكومنتانغ!))

صفق المحاربون ترحيبا بنا و قالوا اننا نستطيع ان نسجل اسماءنا فيما بعد.

ثم اقبل كثير من الجنود يحملون حقائب الدواء و الطعام و الكساء، و قطع القماش، و سلال مملوءة بريالات فضية و سبائك و قطع نحاسية. اخذت الجموع تنظر اليهم و على وجوهها شعور العرفان بالجميل بينما راح رجال الجيش الأحمر يساعدون الضحايا على ارتداء الملابس و تناول الطعام. و اعطوا لكل واحد من المرضى دواء و قطعة من القماش و اثنتى عشرة قطعة فضية.

و تحدث الجندي ذو المدفع الموزر مرة ثانية. و كان وجهه عريضا و له حاجبان كثيفان في لون داكن. و كان ودودا. و منذ اللحظة الاولى احببته من اعماق قلبي. و

قال: ((بني وطننا الاعزاء! كل هذه الخيرات قد اعتصرها الكومنتانغ و الاقطاعيون من الكادحين، و نحن الآن نوزعها بينكم لنساعدكم على العيش و على تطوير انتاجكم. و غدا سوف نفتح مخزن الحبوب. و نأمل أن تأتوا و معكم اكياسا، و عليكم ان تخبروا هؤلاء الذين لم يحضروا اليوم ان يأتوا غدا ايضا. لقد حان الوقت لأن ((يتمتع الجميع.))

و تلت خطابه صيحات مشبوبة ((شكرا للجيش الأحمر!)) تبين لي فيما بعد ان المتكلم كان المقرر السياسي ليو تشي تشون. بعد ذلك قادونا الى مقر مركز ادارة الفرقة، و هو فناء بيت احد الأثرياء. و اشار المقرر السياسي الى رجل متوسط الحجم له عينان صغيران، و قال: ((هؤلاء الرفاق الثلاثة سيدخلون فصيلتك فأرعهم بعناية، انهم رفاق من قومية يي)) كان يتكلم و هو يومىء الينا: ((و انتم لا تخافوا. ستشعرون بأنكم في بيوتكم.)) ثم أشار الى الرجل ذي العينين الصغيرتين و قال: ((هذا هو الرفيق هو شيانغ جونغ، ضابط فصيلتكم.)) و سار بعيدا مع الرفاق الجدد الآخرين.

ثم اعلن ضابط الفصيلة: ((يا رفاق، تعالوا نرحب بالرفاق الجدد!)) فخرج سبعة او ثمانية من الشباب من الفناء مندفعين، و انهمكوا في احضار الماء. و صب الشاي و تناول اشياء اخرى. و دخل احد الرفاق يحمل صرة و اعطى كل واحد منا رداء رسميا (قصصناه و عدلناه، ليلائمنا في السير و القتال) و زوجا من النعال المصنوعة من القش. قلت لنفسي: ((الآن اصبحت محاربا احمر فلأنزل بها ضربة عنيفة على عصابة الكومنتانغ!))

و بعد ثلاثة ايام، رحلت القوات و تجمع كل الناس لوداعنا. على التلال و في الحقول، في عباءاتهم التي يعبث بها الهواء. قدموا لنا رؤوس الخنازير و لحم البقر و الاغنام و الخمر و ضغطوا علينا لكي نقلبها. و تمنعت القوات مرارا. و فكرت، ان رفاقنا الجرحى و المرضى في حاجة الى اللحم. فعلينا ان نقبلها ما داموا يقدمونها لنا باخلاص كبير. و جاء اناس آخرون بالهدايا، كان اغلبهم من الرجال

المسنين و النساء التي تملأ الدموع عيونهن، و قالوا: ((لقد فعل الجيش الأحمر الكثير من أجلنا خلال الايام القليلة التي قضاها معنا. و الآن ترفضون ان تشربوا جرعة واحدة من الخمر. ان هذا لا يصح ابدا.))

و قال لهم القائد، ان علينا خوض المعارك في الطريق و اذا ما حملنا اشياء كثيرة فانها ستعوق حركتنا.

و في الحقيقة كانت معداتنا خفيفة. و لم أكن أفهم ابدا لماذا نرفض على حساب بطوننا. و على أي حال فلم يدعنا الناس نذهب. و اضطررنا ان نرشف بعض جرعات من الخمر الذي قدمه لنا المودعون الذين اصطفوا على جانبي الطريق و أقبل علينا جمع من الرجال يحملون سيوفا و حرابا و عصيا، طالبين الانضمام الينا. دخلنا في مناقشات طويلة لننهي الامر. و نتيجة لهذا فقد ازدادت صفوفنا بأربعمائة من الفتيان الأشداء. و كانت مؤخرة طابور قواتنا تبدو متلاشية في اللانهاية.

مرَّ يومان، و بينما كنا نقترب من هايتانغ، علمنا ان الناس هناك قد اوقفوا و حاصروا رئيس الكومنتانغ في محافظة يويهسي عند محاولته الهرب مع بعض زعماء فرع حزب الكومنتانغ في يويهسي مع كتيبتين من قوة الأمن و بقي الأهالي في انتظارنا لنضع نهاية لهؤلاء المُحاصَرين، تذكرت أنّي لم اتسلم بندقية، فذكَّرت قائد السرية بذلك. فقال ان القيادة تخشى ان تسلم الرفاق الجدد اسلحة، فيرهقهم ذلك اثناء السير لذلك قررت ان يستمروا في السير بدون سلاح في الايام الاولى. و على أي حال، فتحت إلحاحي المتكرر، اُعطيَت لي بندقية قديمة من صنع ترسانة هايتانغ و ثلاثة خراطيش كان احدها فارغا.

كنا نقترب من هايتانغ. و جعلتني فكرة لقائنا للعدو اضطرب بعض الشيء عندما اشار الينا ضابط الفصيلة و قال انه بما اننا حديثو العهد بهذا العمل فان علينا اولا ان نرقب كيف يقاتل رفاقنا القدامى. فقلت غاضبا: ((لقد جئت لمحاربة الكومنتانغ و ليس لمشاهدة القتال!))

و حاول ضابط الفصيلة ان يقنعني، و لكني ظللت واقفا في مكاني. و اخيرا قال لي ((يا رفيق أرموسيا، انت الآن في الجيش، و لست مواطنا عاديا. و عليك ان تطيع الاوامر. و فكرت: ((ان هذا صحيح فانا الآن محارب أحمر.)) و عدت الى المؤخرة. و لكن يجب ان اقول أنني أطعت الاوامر و لم يكن بنفسي أي قدر من الرضى.

و عندما وصلنا هايتانغ، رأينا اخواننا من قومية يي يحملون اسلحة مختلفة و يلوحون بعباءاتهم تحية لنا. كان الضرب سريعا و عنيفا. و كان العدو يحتمي بتحصينات من حوائط الطوب النيء و يقف موقفا معاندا. و بينما كان ضابط الفصيلة يحشو خزانة بندقيته بطلقة اخرى، لاحظت احد جنود العدو يصوب بندقيته نحوه. و في الوقت المناسب، رَفَعتُ بندقيتي و اطلقت النار. فسقط جندي العدو ميتا خلف الحائط. و انزعج ضابط الفصيلة لصوت الطلق الناري الصادر من خلفه، فالتفت الي و فهم على الفور. و بدون أي كلمة، تقدم الى الامام مع الآخرين. وقع رئيس المحافظة و اربعة من زعماء حزب الكومنتانغ في الاسر، و هربت الكتيبتان من قوة الأمن التابعة للكومنتانغ و لكن الأهالي استطاعوا ان يقهروهم و يبيدوهم.

و لقد أُرغِمَ اهالي هايتانغ على مبارحة بيوتهم، التي تركت مفتوحة، و حُطِّمَ أثاثها و بُعثِرت محتوياتها في كل مكان. و عندما ارتطمت قدمي بكوم من المخلفات امام احد البيوت، تدحرج قدح صغير أنيق من ذلك النوع الذي يستعمل في شرب الخمر. فالتقطته و وضعته في حقيبتي لأشرب فيه الخمر في المستقبل و عندما كنت سائرا في طريقي قابلت ضابط الفصيلة الذي كان يبحث عني. و بينما كنا نسير مررنا بحانوت للخمر، رأينا بعض الجرار و قد انكسرت، و الخمر يسيل في كل مكان، بينما ضاعت بعض أغطية الجرار الاخرى. كانت رائحة الخمر العطرية مغرية. و بينما التقطت وعاء مكسورا من على المنضدة و غطسته في الجرة، كنت على وشك ان اشرب حين ضبطني ضابط الفصيلة قائلا: ((يا رفيق أرموسيا أنك محارب أحمر، و ليس لك أن تشرب خمرا عائدا لاناس آخرين، و كان علي أن أرجع عن

ذلك و لكن لم اعرف لماذا. و أحسست ان ضابط الفصيلة عنيد و متزمت. و قلت في نفسي ان الخمر يسيل ضائعا في كل مكان، و ما الضرر في أن أنال قليلا منه؟

عقدت الفصيلة اجتماعا. و أخذ الضابط يشرح لنا كيف سنسير و نقاتل في الغد. و شدد بصورة خاصة على الملاحظة الصحيحة لسياسة الحزب بالنسبة للقوميات و الضبط الجماهيري.

و قال في أسف: ((يجب أن أنقذ نفسي. لقد كنت اوجه كثيرا من اهتمامي في هذه الأيام للقتال. و نسيت أن أهتم بالرفاق الجدد، لنساعدهم و نعلمهم. و اليوم، كان الرفيق أرموسيا ...))

اخفضت رأسي خجلا. و أخذ الرفاق ينظرون الي.

((أيها الرفاق. لا تلوموه. بل اللوم يقع عليَّ و على الرفاق القدامى. فنحن لم نعطه مساعدة كافية. انه لم يكن يعرف ((قوانين الضبط الثلاثة و لا الثمانية نقاط للاحتراز و لا سياسة الحزب تجاه القوميات.))

و خفض المحاربون القدامى رؤوسهم. و لكني لم أكن حتى الآن أرى شيئا غريبا فيما فعلت. و عندما تحركت فجأة سقط قدح الخمر من حقيبتي و تدحرج على الارض.

حدَّقَ الجميع في القدح متسائلين: ((من أين جاء القدح؟)) و فكَّرت، لماذا تثار عاصفة في فنجان، و قلت ما كان يدور في خلدي: ((لقد التقطته من كومة مهملات، و لو لم أفعل هذا لكنت وطأته بقدمي و كسرته.)) فصاح في وجهي احد الرفاق و كان له مظهر خشن: ((لقد مرغت شرف الجيش الأحمر.)) و أبدى بعض الرفاق الأسف و أظهر رفاق آخرون سخطهم.

و صاح ضابط الفصيلة مهدئا الموقف: ((اهدأوا يا رفاق!)) و التفت الي قائلا: ((يا رفيق أرموسيا. نحن رجال الجيش الأحمر. قد وهبنا أنفسنا للشعب. فلن نأخذ شيئا من الناس. و اليوم قد سَلَكتَ مسلكا مخالفا قوانين الضبط عندنا. فبالرغم من

انك قد وجدت القدح في كومة مهملات، فهو على أي حال من ممتلكات الشعب. و كان يجب ألا يجد طريقه الى حقيبتك. فانتبه لكي لا يحدث مثل هذا مرة اخرى. ان عصابة الكومنتانغ تخصصت في امتهان الشعب. فعلينا ألا نفعل مثلهم. و الآن ارجع هذا القدح الى مكانه.)) قالها في لهجة رقيقة و كانت عيناه الصغيرتان مثبتتين عليَّ في لطف.

و بينما كنت أنصِت اليه، مر بخاطري منظر عصابات الكومنتانغ يقتلون و يحرقون و منظر الجيش الأحمر يفتح السجن و مخزن الغلال، موزعين الغلال على شعب قومية يي و الاخوة الفقراء من قومية خان ان الجيش الأحمر لا يأخذ قدحا صغيرا من الشعب. و من هذا كله اتضح لي اني كنت مخطئا.

لم يكن حطب الوقود كافيا لانضاج الطعام للمساء. و أُرسل كثير من الرفاق ليشتروا حطبا، و لكن احدا منهم لم يوفق حيث لم يكن هناك من يبيع حطبا. و لمّا كنت من اهل المنطقة، طَلَبَ مني المقرر السياسي ان اذهب مع ضابط الفصيلة لنبحث عن حطب. كان الظلام حالكا و بعض الاهالي لم يعودوا بعد. سرنا خلف ضوء البطارية نبحث في أماكن كثيرة. و اخيرا عثرنا على ثلاث حزم من الحطب في فناء احد البيوت. و بعد ان ضممتهم الى بعض بسرعة و ربطتهم الى ظهري، و استعددت للرحيل قائلا: ((ان الطهاة يحتاجوننا بسرعة، و نستطيع ان نضع بعض النقود هنا فيما بعد.))

بدت الحيرة على ضابط الفصيلة لفترة وجيزة. ثم طلب مني أن انتظره حتى يذهب الى المقرر السياسي ليستشيره و يعود ثانية فغضبت منه لتدقيقه الشديد لقد سارت الفرقة يوما كاملا، و الآن يشعر كل واحد منا بالجوع، و مع هذا فضابط الفصيلة يسبب تأخيرا غير ضروري.

بعد قليل أقبل الاثنان، كان المقرر السياسي يحمل ميزانا كبير و ضابط الفصيلة يحمل ثلاث قطع من القماش. و كنت في عجب، ماذا سيفعلان بهذه الأشياء، عندما طَلَبَ مني المقرر السياسي ان امسك البطارية بينما اخذ هو و ضابط الفصيلة يزنان

الحطب. ثم كتب شيئا على قصاصة من ورق ثم عاد و قرأها: ((ايها الاصدقاء المواطنون. نحن الجيش الأحمر. نأسف لأن نأخذ حزم الحطب الثلاث من فناء منزلكم، اذ اننا لم نجد مكانا نشتري منه. و حيث اننا لا نعرف سعر حطب الوقود هنا، فقد تركنا ثلاث قطع من القماش في مقابل الحطب الذي يزيد على ١٢٠ كاتي. و اذا رأيتم ان هذا التقدير ليس صائبا. فيمكنكم ان تأخذوا هذه القصاصة من الورق الى قوات الجيش الأحمر التي ستأتي بعدنا و تطلبوا منها ان تزيد شيئا. الكتيبة الخامسة من اللواء الثاني عشر للفرقة الرابعة للجيش الاول لجيش الجبهة الاولى للجيش الاحمر الصيني للعمال و الفلاحين أيار ١٩٣٥.)) و اضاف بعض الكلمات ثم حشر الورقة وسط القماش و علقها بعناية خلف الباب – و اخذ يتأمل الموقف قليلا قبل ان يقودنا الى الخارج – و بسلوكهما هذا ضربا مثلا للضبط الجماهيري، كان بالنسبة الي بمثابة درس عميق.

قبل شروق شمس اليوم التالي، كنا نأخذ طريقنا تجاه تاشوباو. و حولنا تجمعت في الطريق فئات مختلفة من الناس، رجالا و نساء، كهولا و شبانا. و بعد ان وصلنا تاشوباو، كان علينا ان نعبر نهر تاتو. و عندما علم الاهالي أننا ننوي عبور النهر، طلبوا الينا ان يعبروا معنا. و عملنا ما في وسعنا لتوضيح الامور، و بعد ان اخترنا اثنى عشر رجلا من اخواننا من قومية يي، ليعملوا كمرشدين، طلبنا من الباقين ان يرجعوا الى ديارهم. و على كل حال، فعندما وصلنا النهر، وجدنا أن العدو قد حطم كل القوارب، و في نفس الليلة احضر الناس اخشابا و صنعوا عشرات من العوامات.

و في فجر اليوم التالي، كان الضباب يتجمع كثيفا فوق صفحة النهر. بدأت القوات في العبور. و نزلت المجموعة الاولى الى المعلومات و عند الشاطىء، اجتمع عدد غفير من شعب يي، كانت الدموع في عيونهم، و هم يراقبون محاربينا و هم يغيبون عن الانظار في غطاء من الضباب. و صاحوا: ((يجب ان تعودوا!))

و وقفت البقية من الجنود التي تنتظر دورها في العبور، بينما الاهالي يحملون الاطفال و يقبلونهم.

و تساءل الشيوخ: ((كم سيمضي من الوقت قبل ان تعودوا الينا!))

و دمعت اعيننا. و في الحقيقة كان الفراق صعبا بالنسبة الينا ايضا.

و عندما نزل آخرنا الى العوامات، اخذ بعضهم يصيح في جزع. اخذنا نلوح لهم من العوامة صائحين: ((وداعا ايها المواطنون الاصدقاء. نرجوكم ان ترجعوا!))

و صاح آخرون في بكاء: ((يجب ان تعودوا سريعا!))

((ارجعوا ايها المواطنون الاصدقاء و سوف نتذكر طلبكم.))

رست القوات على ضفة النهر و بدأنا نسير خلف زملائنا. و لكن الجموع لم تتحرك. و أتت اصواتهم ترفل حزينة عبر النهر.

((يجب ... ان ... تودعوا ... سريعا!))

كنا نتطلع الى الخلف اثناء سيرنا. تَكاثَفَ الضباب، و بالتدريج اختفت الجموع عن اعيننا. لعنة على الضباب! ودعكنا عيوننا بينما كنا نتقدم، و نعود فننظر الى الخلف مرات و مرات، حتى بعد ان قطعنا مسافة طويلة.

من قلب لقلب

كانغ تشنغ ته ((ميجور))

في ربيع ١٩٣٥، اثناء المسيرة الكبرى، وصلت الفرقة الحادية و التسعون التابعة لجيش الجبهة الرابع الأحمر، الى معبد اللاما الذهبي في سيكانغ و كانت المراكز الرئيسية للفرقة تقع في قلب القرية على بعد ٩٠ لي من المعبد و تعرف باسم بوبا. و كنت اعمل وقتها في قسم الدعاية بالفرقة.

كانت بوبا، أكبر قرية جبلية في تلك الأنحاء، تعيش فيها ٩٠٠ عائلة من قومية التبت، في بيوت من الحجارة، تبدو و كأنها استحكامات الميدان. و قد هرب التبتيون جميعا قبل وصول القوات. كنا نرى الاشرطة الحمراء معلقة على الأبواب المختومة بالتعاويذ او بالأقفال. و كانت ساحات المنازل خالية إلا من بعض حطب الوقود. و من اجل احترام شعور الأقليات القومية، قررت القيادة ألا ندخل منازلهم، و أن نقيم في استراحة للجنود في العراء خارج القرية.

كان الوقت لا يزال في اوائل الربيع، و الجو باردا، يبعث الى اجسامنا بقشعريرة. كنا ننام في العراء حول النيران، فنشعر بالدفىء، و لكن ظهورنا لم يكن وراءها أي شيء يدفئها، تكاد تتجمد من البرد. كنا نفرش تحتنا بعضا من القش ليحمينا من الرطوبة و هذا كل ما كان يمكننا عمله.

و كان الطعام مشكلة ملحة – ذلك لأنه لم يكن ثمة من شيء. و حتى جذور الحشائش و لحاء الاشجار كانت غير كافية. و عدد المرضى و الجرحى كل يوم في ازدياد.

قررنا ان نستريح، لننظم انفسنا و نسترجع قوانا.

و قد قيل ان الشمام لا يمكن فصله عن شجرته، كما لا يمكن ان يفصل طفل عن امه. فكيف يعيش الجيش الأحمر منفصلا عن الناس؟ و لكن، قبل الآن لم تأت أي قوات الى هنا قط، و أهل التبت بعيدون كل البعد عن معرفة أننا قوات من الشعب. فعندما علموا بوصول قواتنا، قادهم زعيمهم الى الجبال، اخذين معهم مواشيهم و اغنامهم. حتى اللامات غادروا المعبد.

يجب ان نستجمع قوتنا لاستعادة الناس الى هنا. اصدرت القيادة اوامر مشددة برعاية الضبط الجماهيري بكل دقة، باحترام عادات و تقاليد الاقليات، و بعدم لمس الأشرطة الحمراء و التعاويذ المعلقة على الأبواب، و بكنس الشوارع يوميا، و ان علينا نحن قسم الدعاية، ان نسير مع المترجمين، ((واحد او اثنين من الخان الذين يعرفون اللغة التبتية يلحقان بكل كتيبة.)) و نبذل كل جهدنا للعثور على الناس و اقناعهم بالعودة.

قسمنا انفسنا الى عدة مجموعات. كتب بعضنا بحروف كبيرة في اماكن واضحة من القرية شعارات عن ((قوانين الضبط الثلاث و عن النقاط الثمانية للأحتراز)) الخاصة بالجيش الأحمر و سياسة الحزب تجاه الأقليات القومية. و بعضنا ذهب الى الجبال للبحث عن الناس. قضينا ثلاثة ايام او اربعة في كل مهمة، كنا نقضي الليالي في الجبال المقفرة و في الغابات او على الأراضي العشبية التي ليس لها حدود. و في كثير من الأحيان كنا نسمع اصواتا آدمية او نلمح آثار روث حديث لأغنام و ماشية و لكنا لم نلمح أي شبح لإنسان.

و بعد مضي أكثر من عشرة ايام على هذه المهمة ساقنا الحظ الى كهف من الحجر، كان يختبىء به زعيم التبتيين. و بعد شرح طويل و دعاية مسهبة، عرفنا انه مشتاق لحصان. و لو جاء هذا الطلب قبل الآن لكان من السهل إجابَته، لكن الآن و قد ذبحنا كل حصان لنأكله لم يبق لدينا إلا الحصان الذي يستعمله قائد الفرقة. و عندما رجعنا و اشرنا الى هذه المشكلة آمر القائد بارسال الحصان فورا.

فرح الزعيم كل الفرح بالهدية، و مع ذلك لم يكن يشعر بالثقة تماما. فأرسل بعض رجاله معنا ليلقوا نظرة على الأشياء و عندما رأى هؤلاء الرجال الشعارات المكتوبة عند مدخل القرية و وجدوا ان الأقفال، و الأشرطة الحمراء و التعاويذ لم تمس، و ان شيئا من المواد المخبأة بين ثنايا الجدران لم يختف، و ان الشوارع مكنوسة و نظيفة، و اننا نعسكر في العراء خارج القرية، و اننا نأكل الخضروات البرية، بأن عليهم التأثر العميق و مدوا أيديهم لمصافحتنا. و بعضهم لم ينتظر، بل اسرع يجري عائدا الى الجبل ليحكي لزعيمهم و رجال قريتهم ما رآه في القرية.

ثم عاد التبتيون واحدا فواحدا من الجبال و الأراضي العشبية و معهم ما يقرب من ٣٧٠٠٠ رأس ما بين أغنام و مواشي محملة بالشعير و الشانبا ((طعام مصنوع من الشعير و الزبدة)) و وراء زعيمهم اخذوا يفتحون ابواب منازلهم، و بالرغم من معارضتنا أرغمونا على الدخول اليها في احتفال كبير. و بدأ بعضهم يكشف عن لحم الخنزير الذي كانوا قد دفنوه تحت الأرض ثم قدموه الينا. و الى جانب ذلك قدموا الينا ايضا ثلاثمائة رأس من الماشية و الأغنام.

و رفضنا. و نحن لا نعرف عادات التبتيين، و آلمهم ذلك كثيرا و لمّا رأينا ان ليس عندهم ملحا، و لا يعرفون كيفية الحصول عليه، اعطاهم كل واحد منا جزءا من مؤنته الضعيفة و قدمناها اليهم و لكنهم لم يقبلوها. و قد علمنا من المترجم انهم غضبوا منا لأننا لم نقبل هديتهم، و اننا بذلك نعاملهم كأغراب. و لذلك قبلنا الطعام و اللحم الذي قدموه الينا، و قبلوا بدورهم الملح و بعد ذلك اصبحنا كافراد عائلة واحدة. كنت أعيش في منزل على الجبل لامرأة عجوز اسمها واي. و كانت قوية و نشيطة. لها ولدان. الأكبر يعمل في مزرعة للتربية الحيوانية و لا يعود الى المنزل إلا نادرا. و الآخر يعمل في الأرض و لها ايضا بنتان، الكبرى قد اخذنا احد الزعماء المحليين قسرا، و قد افعمها الحزن عندما كانت تقص علينا تلك الحادثة. سارت الحال على احسن ما يكون. و في كل يوم قبل شروق الشمس، كنت اذهب مع تشانغ هونغ ((الشيطان الصغير)) و هو من قسم الدعاية، الى اسفل الجبل لنجلب

ماء و نسخنه لها لتستعمله في الغسيل عند عودتها. كانت دائما تقول لنا: ((اننا احسن من اولادها)) و فيما بعد قامت بدور تنظيم النساء لكي يغسلن و يرتقن ملابس الجنود.

و في احد الايام، عندما عَرَفت ان مائة من المحاربين الجرحى و المرضى موجودون بالقرب من القرية، جندت النساء لكي يطهين لهم الطعام، و يغلين لهم الماء و يرعينهم رعاية الامهات لأبنائهن كذلك نَقَلَت الى منزلها الرفيق لي جوان يو نائب المقرر السياسي للكتيبة التاسعة في اللواء الحادي عشر، و قد كان يعاني من جرح خطير، و اخذت ترعاه بنفسها. و لمّا وَجَدَت اننا لا نملك إلا القليل جدا من الدواء، كلفت ابنها الأكبر بأن يبحث في المراعي عن الأعشاب، لتسحقها بالمدق في الجرن الحجري و تضعها على جرح ((لي))، و كانت كل ثلاثة ايام تعيد تضميد الجرح. و في ايام قلائل شُفيَ نائب المقرر السياسي. و استطاع ان يقف على قدميه. و ناداها نائب المقرر السياسي: ((بالأم الغالية)). و قد تأثرت العجوز لذلك و ربتت عليه و ابتسم الاثنان.

و في آخر يونيو ودعنا اصدقائنا التبتيين، و تركنا بوبا و تابعنا المسيرة الكبرى. و في خريف ١٩٣٦، و بعد عبور عدد لا حصر له من الجبال و الأنهار وصلنا الى ينان، المكان المقدس للثورة الصينية.

العلم الأحمر فوق لا تسكو

تشانغ جن تشو ((لفتنانت جنرال))

في حزيران ١٩٣٥، واصل الجيش الأحمر الأول و الرابع للجبهة بعد أن أتصلت قواتهما في أراضي المستنقعات، الزحف نحو جنوب كانسو. و في أيلول، كُلّفَ اللواء الأحمر الرابع بالاستيلاء على لا تسكو. و كان الفوج الثاني هو القوة الأساسية في عملية الهجوم، فكان هذا شرفا و تشجيعا لنا و بعد الرحلة عبر المستنقعات المهجورة، جعلنا عدم القيام بشيء نحس بالضيق و نرحب باية فرصة للهجوم على العدو. و كذلك، ايضا، حفظنا في نفوسنا رغبة دفينة – و هي تسديد ضرباتنا القوية في المعركة الأولى، ورؤية الرئيس ماو.

كنا نتقدم تحت أشعة القمر. و الجنود يسيرون بخفة و نشاط، يغنون اغنيات بلدتهم. تحدثت أنا و واي ته تشوان، نائب آمر الفوج، مع الجنود مرات و مرات. و كان كل واحد منهم يطلب ان يكون من بين قوات عملية الهجوم.

و عندما كانت القوات قد انتهت من عبور غابة مظلمة رطبة، كان الفجر قد بزغ. و على الجانبين يلف الضباب قمم الجبال، فتبدو على بعد و كأنها جزر تسبح على سطح الماء. رويدا، رويدا بدأ الضباب ينقشع. و عند عبورنا لممر في الجبل رأينا ظلال اجسام تتحرك من بعيد. أسرع رجال الاستطلاع عائدين و اخبرونا ان فوج العدو يبني أعمال الميدان على الناحية الاخرى من الممر، و هدفه تعطيل تقدمنا. قررنا في الحال ان نسأل مركز القيادة لارسال قوات لمحاصرة العدو و القضاء عليه.

و بمجرد ان تمَّت الموافقة، تقدمت القوات في هدوء في صفين على طول الممر. و بعد قليل، ترددت في الوادي اصوات الطلقات السريعة و انفجارات القنابل اليدوية. و في ربع الساعة التالي، كانت قوات العدو قد وقعت في الأسر او قتلت إلا

بضع أفراد سعداء الحظ هم الأسرى. و قد غنمنا الكثير من زجاجات الماء، و أحذية المطاط، و التموين، و القنابل اليدوية – و هي اشياء كنا في شدة الحاجة اليها بعد ان عبرنا أراضي المستنقعات.

و عندما استجوبنا اثنين من الأسرى و سألناهما عن دفاع لا تسكو، بديا في منتهى الرعب و اخذا يخلطان في كلامهما و يدعكان انفيهما بطريقة مخجلة. ثم بعد شرح طويل من جانبنا، قالا اخيرا: ((سيدي، من فضلك كن رحيما علينا. لقد جُنِدنا بالقوة.))

كان من الصعب علينا ان نعرف هل نغضب ام نضحك. أمرنا المحاربين الذين كانوا يحرسوهما ان يغادروا المكان، ثم قلنا للأسرى: ((ان الجيش الأحمر ذو رفق بالأسرى، فالأجدر بكما أن تكونا شريفين!))

هدأهما ذلك قليلا و قال احدهما و هو ذو القبعة التي يرتديها ملتوية على رأسه: ((اننا لم نكن نتصور انكم ستصلون بهذه السرعة.))

ثم قال الآخر: ((لقد وصلنا لا تسكو قبل البارحة، و قد حطمتمونا قبل ان نكمل بناء اعمال الميدان.))

و طلبنا المزيد من المعلومات. و اخيرا قالا: ((من الأحسن لكم ان تدوروا دورة حول المدينة. ان لا تسكو حصن طبيعي يحرسها لواءان و الاستحكامات فيها واحدة فوق الاخرى. و حتى لو كانت لديكم أجنحة فلن تستطيعوا الطيران فوقها!))

ثم قال احدهما و هو يتنهد: ((افرضوا اننا لم ننزل الى الوادي!)) و انفجرنا ضاحكين. ان الجنديين يلومان قائدهما لأنه ارسلهما الى اسفل الوادي، غير مدركين ان زملاءهم هناك على الجبل سوف يشاركون نفس المصير في اليوم التالي.

و الحق ان لا تسكو، حصن طبيعي فالجبال العالية تموج و ترتفع الى مسافات عالية في الفضاء الأزرق، و على الجانبين تنتصب الصخور الوردية العمودية. و على قمة الهضبة الواقعة على اليسار صخور غريبة الشكل، ينحني عليها شجر

الصنوبر العجوز. و على سفح الجرف الى اليمين يجري نهر، مضطرب، يحمل المياه من نهيرات الجبال، يرتطم تياره الجارف بالصخور و الأحجار، و ترتفع منه في عنف اعمدة من الرذاذ. و قد كسرت غصن شجرة في عبث، و في طرفة عين طار في الهواء. و في المكان بين الهضبة و النهر، يجري ممر جبلي يقود الى مينشو في جنوب كانسو. و على هذا الممر العصيب، بنى العدو عشرات من التحصينات.

مشينا على شاطىء النهر، لنجمع بعض الملاحظات الهامة. ثم قال نائب آمر الفوج: ((ان الحالة واضحة تماما، و انه لمن الصعب ان ندور دورة حول المكان، لذلك يجب ان نحتل هذا الممر اذا كنا نريد ان نصل مينشو.))

اومأت برأسي موافقا. و في هذه اللحظة سُمِعَتْ الطلقات من مواقع الاستحكامات، و الرصاصات تضرب الصخرة التي نقف عليها. ثم صرخ جنود العدو و هم مفعمون بالثقة: ((عودوا! لن تعبروا لا تسكو. و لو ظللتم تهاجمون حتى السنة المقبلة!))

شعرنا برغبة في الضحك. لقد عبرنا نهر تاتو، و نهر الرمال الذهبية و تعرضنا للتهلكة و نحن نعبر سلسلة الجبال الثلجية فمَن ذا الذي يوقف تقدم الجيش الأحمر!

و لتعزيز قوات هجومنا، اعطتنا قيادة الفوج، أربع مدافع هاون للخنادق التي تمتلكها الكتيبة الوحيدة لمدافع الخنادق. و استعرنا كذلك مدفعين ثقيلين من الفوج الأول. هذا بالاضافة الى اثنى عشر مدفعا خفيفا نمتلكها نحن، و كانت هذه الأشياء تعتبر في ذلك الوقت معدات من الدرجة الأولى. تضاعفت ثقة المحاربين. و ابتدأت الاستعدادات – بعضا يشحذ الحربة، و يلمع البنادق و البعض يربط القنابل اليدوية حول خصره، وآخر يعد المدافع الرشاشة و غيرهم يحشون حامل المدافع الرشاشة ذو الثلاثة أرجل ليحميه من التلف على الصخور. كان كل واحد يصرخ و هو ينافس الآخر في صخب من اجل مهمة الهجوم.

و بعد الكشف على الاعمال التحضيرية لكتيبة المشاة، ذهبت الى كتيبة المدفعية. كان القائد الذي ينتشر على وجهه آثار الجدري، منهمكا في حساب كل الاحتمالات الممكن حدوثها. ربت على كتفه قائلا: ((كيف الحال الآن، ان التخطيط لأرض هذه المعركة لَمَهَمَّة صعبة عليك، أ ليس كذلك؟)) فقال و هو ينظر حوله: ((انها كذلك فعلا، و لكن لا تقلق فقد اوقعنا فوجا للعدو في مأزق و نحن عند نهر تاتو و لم يكن معنا إلا ثلاثة مدافع.))

احضر نائب الآمر و بعض الجنود القنابل، ثم قال: ((كن واثقا، آمر الفوج، ان مدفعيتنا المحنكة مصممة على أن تريهم ((هناك في لا تسكو.))

و ضحكوا جميعا و هم يأكدون قوله.

بدأت المعركة عند الغسق. و بين اصوات الأبواق، انهمرت القنابل على الممر و قمة الجبل، و دكّت المدافع الرشاشة استحكاماتهم. ثم اخذ محاربوا الكتيبة الرابعة برصاصهم الفاتك و قنابلهم العنيدة يهاجمون الممر. اعتمد العدو على التحصينات الطبيعية، و اخذ يمطرنا بوابل من القنابل اليدوية المرة بعد المرة. اخذت طلقات الرصاص تنهمر كالسهام و صار الممر و كَأنَّ عليه تنين ناري ضخم يتلوى. و غطت الوادي السنة النيران و الدخان و في كل مكان كانت تسمع اصوات الطلقات و الانفجارات كأنها الرعد.

فشلنا اربع مرات متوالية في الهجوم. و سقط جنود كثيرون و لم يقوموا بعد ذلك. و هكذا اصبح العدو أكثر ثقة و أكثر اندفاعا في اطلاق النار بلا توقف.

كان واي نائب آمر الفوج، اثناء المعارك ينسى كل شيء من حوله و يصبح مندفعا في تصرفاته. لذلك عندما رأي هذه الحالة صرخ في حنق: ((اللعنة! هل سنتقهقر بفعل هؤلاء الأنجاس؟ سآخذ الكتيبة السادسة و أتقدم.))

ثم هَبَّ و بدأ ينصرف. فأمسكت به و صرخت: ((قف يا واي! أنا لست بأقل جنونا منك! و لكنك لا تستطيع النجاح هكذا بالقوة المحضة و بالشجاعة على ارض معركة مثل هذه – يجب ان تستعمل عقلك.))

في الحال أمرنا الجيوش بالانسحاب. ثم نادينا ضباط الكتيبة و آمري السرية للمشاورة في التكتيك. قُدِّمَتْ الاقتراحات الكثيرة: إخماد العدو بمضاعفة قوى النيران، جعل قوى المقدمة اقل عددا و لكن أكثر خبرة و مقدرة، محاولة ايجاد مركز لنا على الصخرة بالانتفاع بالزاوية المهملة، و الالتفاف حولهم لشطر جناحهم.

و بينما كان آمر الفوج يقود القوات لمواصلة الهجوم، ذهبت لمركز قيادة اللواء للتبليغ.

و بعد ان قدَّمَ لي، الرفيق وانغ كاي هسيانغ، و قائد اللواء و الرفيق يانغ تشيغ وو و القمسار السياسي، العون و الارشاد، اخبروني انهم قرروا ان يتقدم الفوج الاول و معه كتيبتان لعبور النهر، ثم تتسلق الجبل من اليمين و تهاجم العدو من المؤخرة. و في نفس الوقت أمروا بأن تعيد الكتيبة تنظيم الهجوم.

و لمّا عدت، قابلت نائب آمر الفوج الذي أبلغني ان ثلاث هجمات اخرى اثناء غيابي قد فشلت. لذلك اخبرته بان يوقف الهجوم و يسحب القوات، و يعيد تشكيل فرقة الهجوم.

تجمعت القوات في غابة صنوبر صغيرة و اذا بالطلقات الجزافية لا تزال تنطلق من لا تسكو، و القنابل لا تزال تطن فوق رؤوسنا، استطعنا ان نرى بوضوح، وهج النيران، و دائرة المقاتلين، بعضهم قد اسودت وجوههم من الدخان، و بعضهم قد تمزقت ملابسهم، و آخرون قد لفتهم الأربطة من رأسهم الى أخمص القدم. و عيونهم كلها موجهة الى لا تسكو.

و اذ كنا نتمش تحت الأشجار، سمعنا اثنين من المحاربين يتحدثان: ((اذا لم نستطع الاستيلاء على لا تسكو، فلن تكون عندنا الجرأة لمقابلة الرئيس ماو!)) ثم اجاب الآخر: ((لتهدأ نفسك! أ رأيتنا نحن الجيش الأحمر نخيب في احتلال مكان ما؟))

و بعد ان جمعنا سويا قوات كتائب المشاة و درسنا الحالة، نقلنا اليهم اوامر قيادة اللواء و أخبرتهم أن الفوج الاول قد عبر النهر و أنه يتسلق الهضبة استعدادا لمهاجمة العدو من المؤخرة بالتعاون مع جماعة الهجوم. و اننا يجب ان ننظم جماعة الهجوم.

و قلت لهم: ((اذا فشلنا في الاستيلاء على لا تسكو، فلن نستطيع ان نصل الى شمال شانسي و لقد حان الوقت لاظهار الهمة التي بها هزمنا سلسلة الجبال الثلجية و اراض المستنقعات. ان الرئيس ماو و الحزب و رؤساء الحكومة ينتظرون أخبار انتصاراتنا. يجب أن نرفع العلم الأحمر على لا تسكو قبل شروق الشمس!))

و امتلأت الغابة الصغيرة بالهرج من صراخ الجنود. ((انني شيوعي، و يجب ان أشترك في جماعة الهجوم!)) ((اكتب اسمي، فأنا من شباب المعسكر!)) ((و أنا ايضا!))

كان الجميع يتسابقون لتسجيل اسمائهم، حتى الجرحى طلبوا الانضمام. و هؤلاء الذين لم تُقَيَّد اسماءهم اخذوا يضربون الأرض بأرجلهم. و على كل فقد سُجِّلَتْ اسماء كثيرة جدا. كان علينا ان نختار اربعين من بينهم و نقسمهم الى اربع مجموعات. كل عضو يُسَلَّح بمسدس، و بأثنتي عشرة قنبلة يدوية، و بسيف كبير يُربَط على مقبضه شريط أحمر.

كل شيء على استعداد. خبأ قوات الصاعقة أنفسهم في الحُفَر عند نقطة البدء، منتظرين الاشارة. كانت الرصاصات تريد ان تنطلق. و من اصواتهم الحانقة

ورغبتهم الجارفة، كان واضحا و كأنهم يستطيعون في هذه اللحظة ان يقفزوا عبر هذا المكان و يحتلوا لا تسكو.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، و امامنا الى اليمين يخفق عاليا في السماء علم أحمر. بدأت مدافع الخنادق و المدافع الرشاشة في ضرب مواقع العدو. و في هذه اللحظة قفزت جماعة الهجوم خارج الحُفَر لتبدأ عملها. كنت ارتكز على حافة الحفرة، أراقب عن كثب، بين لهيب الانفجارات، كل حركة من حركاتهم. كان آمر الكتيبة السادسة و معه أربعة أو خمسة رجال، يمرون في انحناء بحذاء الصخرة، تتبعهم المجموعة الثانية التي كانت تنتشر وراء تقدمهم. كانوا يتحركون في اصرار عنيد، يزحفون مرة، و يقفزون الحواجز مرة اخرى، و الأشرطة الحمراء المربوطة على سيوفهم ترفرف وسط الوهج و الدخان. صرخ آمر الكتيبة المدفعية، الذي تعلو وجهه آثار الجدري، و بنادقه تتعالى اصواتها، صرخ في رجاله و كأنهم يستطيعون ان يسمعوه: ((اهجموا ايها الرفاق! اني أخلي الممر لكم. اضربوهم!))

اذهل العدو هجومنا المفاجىء، و بدأت تحصيناته تقذفنا بالقنابل اليدوية. و امتلأ الطريق بشظايا القنابل، و القنابل اليدوية التي لم تنفجر بعد. لم يكن أحد المدافع يصمت إلا ليحل محله آخر.

تعقدت الأمور بالنسبة للمجموعة الاولى و الثانية. و في ذلك الوقت كان يقف الى جانبي آمر السرية تشن كوو خو، قلقا يراقب الهجوم و هو يدق الارض بقدميه كمن يقف على نار. كنت اعرف انه باشارة واحدة مني، سينطلق مسرعا، و لكن لا، يجب ألا افعل ذلك، فلن يزيد هذا إلا قائمة الضحايا. و لكنه بعد لحظة لم يحتمل، مال عليَّ و قال و صوته يرتعش، تختلط نبراته بشعور من الغضب و الانفعال: ((دعني أذهب يا آمر الفوج ... فأنا واثق من انني استطيع القيام بهذه المهمة!))

كنت اعرف هذا الشاب، مواطنا من أنهواي، ممتلئا قوة و نشاطا يظهر فنه في ساحة الألعاب كما يظهر في ساحة المعركة. لقد كان يصرخ عندما سجل اسمه في قائمة جماعة الهجوم، و يقول: ((لن يرعبني شيء، حتى و لو كان جبلا محفوفا

بالسيوف. و سنتسلقه! ان لا تسكو هي الممر الأخير، و ان الاشتراك الفعلي في هذه المعركة يساوي كل شيء حتى و لو كانت حياتي!))

تذكرت اصرار هذا الشاب، و كنت احس برغبة لتركه يذهب. و لكن عقلي الواعي كان يقول شيئا آخر، راجعت نفسي، نعم ان دوره لم يأت بعد. و بعد قليل وجدت ان الوقت قد حان و أمرت المدافع الرشاشة ان تضاعف من نيرانها لتغطية جماعة الهجوم الثالثة، و في نفس الوقت امرتهم بالهجوم. و لم تكد كلماتي تنتهي حتى انطلق تشن كوو خو و هو يلوح ببندقيته الموزر، يتبعه اعضاء جماعته، و هم يصرخون: ((تقدم! تقدم! سنحتل لا تسكو و نرى الرئيس ماو!)) ((دعونا نرى من ذا الذي سيصل الى لا تسكو أولا، نحن ام الفوج الأول!))

و للمرة الخامسة انطلق الهجوم. كانت جماعة الهجوم تؤدي واجبها بكل اخلاص و عزم و تقف في وجه السنة النيران. كان عندما يسقط احدهم، يتقدم الآخر. و بدأ عدد الجرحى يتزايد و لم يكن هناك وقت لكي نمسح الدماء عن جروحهم.

لماذا انقطع صوت الفوج الاول؟ بدأ قلقي يتزايد، و صبري ينفذ، عندما سمعت من مؤخرة العدو، الصوت المعتاد من بوق الفوج، يرتفع في آن واحد مع اصوات انفجار القنابل اليدوية. ((لقد قام الفوج الاول بانجاز المهمة. فالى الامام يا رفاق!)) و تعالت اصوات الفرح من كل مكان.

اخذت فرقة الهجوم تلوح بسيوفها، و هي تتقدم الى الامام بعيون حمراء كالدم. اما ''الشيطان الصغير'' من سلاح الاشارة، الذي كان طوال الوقت الى جانبي، قلقا لا يسكن دقيقة واحدة، فقد اندفع كالسهم الذي انطلق من القوس من غير أن ينتظر اوامري. اصوات المعركة و نداء الأبواق، و طلقات النيران، كل هذا احدث ضجيجا هائلا في جميع انحاء الجبل. و التهب الوادي بالنيران و الدخان. و نتيجة للتأييد القوي من جانب الكتيبة الأولى و الثانية انطلقت فرقة الهجوم الى أعلى الهضبة.

اما مقاومة العدو، فقد ارتعبت و انهارت. و جرى بعضهم الى سفح الجبل و سقط بعضهم من على الصخرة، بينما جرى آخرون في اتجاه الممر الثاني. قذف رجالنا بضع قنابل يدوية و استعملوا سيوفهم الكبيرة في افناء ما تبقى من جنود العدو في التحصينات و اسرعوا في اتجاه الممر الثاني.

و عند طلوع الفجر كنا قد استولينا على لا تسكو.

و لكن المعركة لم تكن قد انتهت. و في الحال انضمت الكتيبة الخامسة الى الفوج الاول في مهاجمة تحصينات الممر الثاني على اليمين. و في هذا الوقت كان عدد كبير من قواتنا يسير على طول الممر في الجبل. و في كل مكان على الطريق المؤدي الى هاتابو و على الأرض المنبسطة، تلوح آلاف من الاعلام الحمراء يمشي من تحتها جنودنا الشجعان متعقبين العدو.

ظَلَّ العلم الأحمر خفاقا

تان تشينغ لين ((ميجور))

في آيار ١٩٣٦، ذهب فرع من الجيش الأحمر من تانبا في سيكانغ مارا بستشوان الى محافظة شانتان في مقاطعة كانسو، قاطعا مسافة ٣٠٠٠ لي تقريبا في ستة أشهر. و خلال تلك المرحلة الطويلة المضنية، كان العلم الأحمر الذي هو رمز لمثلنا الثوري، و دليلا على روحنا المكافحة، يخفق من البداية الى النهاية امام قواتنا الزاحفة. و كان لكل كتيبة علم أحمر. ملهما لها في قهر الطقس الخشن و الاراضي الوعرة، و عبور الجبال المنحدرة، و الانهار ذات التيارات السريعة، و اختراق محاولات العدو المستمرة لوقفنا.

كان العدو يكره رؤية العلم الأحمر.

و عندما دخلنا شانتان، ركز العدو كل قواته لتحاصرنا، آملا ان يبيدنا، بينما نحن منهكون و من ثم يستطيع ان يطفىء النار المتأججة التي تضيء قلوب الناس.

نشبت معركة ضارية في اليوم الثالث لدخولنا المدينة.

و نحن الفوج الثاني للواء الـ ٢٦٨ للسلاح الـ ٩١، كُلّفنا بأن نحفر اعمال الميدان عند شيليبو، خارج البوابة الشمالية. و على أي حال فقبل ان نصل الى موقعنا، كانت خيالة العدو قد ظهرت على بعد اربعة لي من ناحية الشرق و الغرب و الشمال. متقدمة بكل سرعتها. و كان موقع الكتيبة الخامسة على ناحية الغرب من شيليبو. و بينما كنا نستعد لضرب العدو، ظهر القائد على بعد ثلث ميل. و كان امامنا مباشرة، تل في ارتفاع اعلى سقف من سقوف بيوت القرية. و قد رجح القائد ان العدو قد يحتل التل كنقطة لاطلاق النار ليسيطر علينا، فأمر نائبه على الفور بأن

يأخذ السرية الاولى و يحتل التل و يرفع على قمته العلم الأحمر. اصدر اوامره في حزم: ((احتل الموقع و دع العلم الأحمر يرفرف.))

و كنت حامل العلم، بمجرد ان استلمت الاوامر. رفعت العلم و عدت بسرعة خلف نائب الآمر في اتجاه التل. و عندما كنا على بعد عشرين خطوة تقريبا من التل، اذ بثلاثة من خيالة العدو، يهجمون كالإعصار ملوحين بسيوفهم صاعدين المنحدر. كنت ثائرا متهيجا، فاستجمعت قوتي و انطلقت نحو آخر مدى. و في نفس اللحظة أعطى نائب الآمر اوامره باطلاق النار. بانغ! نانغ! و انقلب اثنان من الخيالة الى اسفل التل اما الثالث فقد انكفأ من على السرج و تعلقت قدمه بالركاب. و جره الفرس بعيدا. فقفزت الى الامام و ثبت العلم الأحمر على قمة الرابية.

كانت القوة الأساسية للعدو الذي يقترب منا، تصرخ و تموج ناحية اليمين و ناحية اليسار ملوحة بسيوفها. و تحت توجيه نائب الآمر اطلقنا النار في هدوء مستعملين الحراب عندما كان العدو يقترب منا. و اندحرت شرذمة أخرى. و جن العدو لفشل هجومه الثاني و هو مدرك ما يعني العلم الأحمر نفسيا للجيش الأحمر و لهذا فهو تهديد لهم. جمع اثنى عشر رجلا، اندفعوا نحو العلم الأحمر، مطلقين النار نحوي اثناء هجومهم، كان الرصاص يئزُّ من جانبي اصابت رصاصة صاري العلم و لكنه لم ينكسر لم يرعبني شيء. كانت في رأسي فكرة واحدة: ((ان العلم الأحمر لن يقع على الأرض ما دمت أتنفس. لقد مرت فرقتنا بمعارك اشد عنفا و مرارة. و لست اعلم كم من حاملي الاعلام ضحوا بأنفسهم دون أن يدعوا العلم الأحمر يسقط. اذن فلأرفعه بقوة!))

و يبدو ان منظر العلم الأحمر و هو يخفق كان يبعث الجنون في نفوس الأعداء. فهجم عليَّ احدهم مباشرة مستحثا فرسه و ملوحا بسيفه. و على بعد سبعة او ثمانية امتار مني رفع سيفه ليقطع رأسي و كنت على وشك ان اقذف قنبلتي اليدوية الوحيدة، عندما ظهر فجأة رفيق طويل القامة و طعن راكب الفرس في جانبه بالحربة. فانقلب من على فرسه صارخا. و كنت على وشك ان أصيح ((إنتبه!))

عندما حف سيف جندي من الأعداء بجانبي تماما و كسر الصاري عند منتصفه. و بدون تردد القيت النصف السفلي و رفعت عاليا الجزء الذي يحمل العلم الأحمر و في تلك اللحظة شعرت كما لو كنت ضُرِبْت بمطرقة ضخمة. و زاغ بصري و سقطت الى الأرض.

و بعد قليل. بدأت اعود الى رشدي و استطعت ان اسمع صياحا ضاريا و صرخات المعركة امام القرية حيث كانت تنزل قواتنا. و كان العدو قد وصل الى ما بعد التل الرملي. و كان عقلي مازال خدرا، و لكني افقت على ألم حاد في جانبي الأيمن. كانت الأرض مبتلة بالدماء. و تذكرت واجبي! يجب ان ارفع العلم الأحمر عاليا! دع عصابة الكومنتانغ تعرف أن العلم الأحمر لا يمكن إسقاطه. و بعد ان قاومت و انا اضغط على اسناني، استطعت اخيرا ان ارفع العلم الأحمر. و سمعت أحدا ينادي باسمي من مكان ليس بعيدا عني. فتطلعت حولي لأجد نائب الآمر يرقد في بركة من الدماء.

سألني: ((كيف حالك؟))

فأجبت: ((لا شيء، يا نائب الآمر.))

و عندما رأى نائب الآمر العلم الأحمر مرتفعا، اخذ يتدبر الأمر. و برقت عيناه بفكرة خاطفة و استجمع كل قوته قائلا: ((ايها الرفاق! ألا ترون ... علمنا الأحمر ... لم يسقط و يجب علينا ... مثل العلم الأحمر ... ان نطلق آخر رصاصة ... على مؤخرة العدو!))

ألهمت كلمات نائب آمر الكتيبة الرفاق المصابين فجاهدوا حتى وقفوا على ارجلهم و اطلقوا النيران على العدو.

كانت خيالة العدو تهجم على قواتنا، عندما سمعت اطلاق النار من خلفها، فتطلعوا الى الخلف و صعقوا عندما رأوا العلم الأحمر يرفرف في الهواء. و ظنوا انهم محاصرين. فأخذوا يدورون حول انفسهم.

و لمّا رأى آمر الفوج، العلم الأحمر مرتفعا على التل. و خيالة العدو تتراجع في ارتباك مفرط. قام و صاح في رجال الفرقة الرابعة: ((انهضوا يا رفاق! و اهجموا!)) و دوّى صوت النفير و قفز محاربونا الى الامام صائحين: ((اتبعوهم!)) و هاجموا العدو الهارب.

و من قريتنا، انطلقت كل أنواع الأسلحة، و أخذت خيالة العدو يتخبط بعضها ببعض في ارتباك أثناء تقهقرهم غير المنظم، ملحقين بأنفسهم إصابات فادحة.

و عندما كانوا يفرون متسابقين، اكتشفوا انهم كانوا مخدوعين و ليصبوا غضبهم و استياءهم علينا، اندفعوا حولنا في جنون رافعين سيوفهم. كان رفاقنا يعانون من الجراح، و لكنهم رفعوا بنادقهم و قبضوا على قنابلهم اليدوية بشدة، ضاغطين على أجسامهم المثقلة بالآلام، و هبوا لملاقاة العدو. و أولئك الذين لم يستطيعوا النهوض اطبقوا بكل قوتهم على ارجل خيل العدو.

و امسكت انا العلم الأحمر بيدي اليسرى بكل قوة. و بيمناي سحبت مسمار الامان من القنبلة اليدوية و استجمعت كل قوتي و قذفتها على الخيالة المقبلين. انتشرت سحابة من الدخان الأسود فوق مجموعة الخيل التي ارتبكت و علا صهيلها كما ارتفعت صيحات الرجال. و اندفع احد الخيالة نحوي مباشرة. و رأيت و ميض سيفه ثم فقدت الوعي.

و عندما استيقطت كانت الشمس تغيب عند الأفق، تاركة لونا باهتا على سحب المساء. و لم اعد اسمع حوافر الخيل.

كان الممرض يضمد جراحي، و المقرر السياسي و رفاق آخرون يراقبونني. و في اضطراب و فرح قلت في صوت واه: ((أيها المقرر ... السياسي ... أين ... العلم الأحمر؟)) و عندما رأى المقرر السياسي أنني استعدت وعيي، مال عليَّ و رفع يدي و قال بتأثر و الدموع تترقرق في عينيه ثم تنحدر على وجهه: ((أيها الصغير تان، انظر، انه هناك!)) و استدار مشيرا بيده.

حاولت أن اجلس و أنا احس بالآلام الشديدة. و نظرت الى حيث أشار. كان العلم الأحمر ثابتا على قمة التل يحرسه رجال آخرون. يرفرف في وهج المساء، أحمر نضرا لامعا الى الأبد، كالبطولة الثورية للمحاربين الحمر!